

محمد عناني

حَيَاةٌ مَعَزَةٌ

قصة شعرية

(محاكاة للشاعر الإنجليزي الرومانسي وليام وردزورث)



الهيئة المصرية العامة للكتاب

٢٠٠٤

التصدير

هذه هي القصة الشعرية الثانية التي أكتبها محاكاة للشعر الأجنبي ، بعد طوق نجاة التي حاكيت فيها الشاعر الإنجليزي لورد بايرون في ملحمة الساخرة دون جوان (أنظر الترجمة العربية للملحمة - القاهرة - ٢٠٠٤ ، والقصيدة التي تحاكيها في ديوان يحمل عنوانها صدر عام ٢٠٠٤ أيضاً) . وفي هذه القصة أحاكى عدداً من القصائد لا قصيدة واحدة للشاعر الإنجليزي وليم وردزورث ، من بينها قصيدة الغلام الأبله (The Idiot Boy) التي كتبها عام ١٧٩٨ ونشرها في كتاب مواويل غنائية (Lyrical Ballads) في العام نفسه ، من بحر

الأيامب الرباعى التفعيلات ، وفى فقراتٍ خماسية السطور ، فى كل فقرة قافيتان تتكرر كل واحدة مرتين بهذا النسق أ ب ج ب ، وهو نسق جديد استحدثه وردزورث خروجاً على المألوف فى قوافى المواويل الشعبية رباعية التفعيلات وثنائية القوافى ، بنظام أ ب ج ب فى الفقرة الرباعية كما فعل كولريدج فى مؤاله المعروف ، فإذا كان لها قرار ، أى سطر يتكرر فى آخر كل فقرة مضافاً إلى السطور الأربعة ، فهو يحمل قافية مستقلة أو تابعة لقافية الفقرة الأولى ، بحيث ينتظم شكل القافية فى الفقرة الخماسية كلها ، ويبلغ عدد سطور الغلام الأبله ٤٥٣ سطرًا ، وأما سبب الزيادة فهو أن الفقرة الأولى تتكون من ستة سطور والأخيرة من سبعة ، ويقتصر فيها الشاعر على رواية رحلة الغلام الأبله فى ضوء القمر ، وتصوير إحساسه بالطبيعة الذى يفوق مداركه الذهنية ، تصويراً واقعياً يعتمد على صدق المشاعر فى القلب مهما تكن مثالب الذهن فى الرأس ، ولذلك فالشاعر يضع القصيدة فى الطبقات المتتالية فى سن النضج لأعماله بين "القصائد المبنية على المشاعر" (Poems Founded on the Affections) وهو التنظيم أو التصنيف الذى التزم به ناشرو

الديوان الكامل للشاعر فى مجلد واحد ، وأشهرهم توماس هتشنسون فى طبعة مطلع القرن العشرين ، وعندى منها طبعة ١٩٥٩ ، وأهمهم قاطبة ناشر طبعة أكسفورد إرنست دى سلنكورت (مراجعة هيلين داربيشر ١٩٥٠) .

والقصيدة الثانية التى أحاكىها هى بيتربل (Peter Bell) وهى تلتزم بنفس النمط فى الفقرة طوياً والبحر إيقاعاً والقافية تنوعاً ، ولكنها تختلف لأنها تتوسل براوية يحكى القصة لمجموعة من الساهرين فى حلقة ريفية ، وهو ما أخذتُ به هنا فجعلت الراوية شاعراً من شعراء الريف المصرى الذين يُنشدون على أنغام الرباب ، ويبلغ عدد سطور القصيدة المذكورة ١١٣٠ سطراً ، وتحكى قصة ترحال بائع الأوانى الفخارية بيتربل (وكان يعتبر بائعاً جوالاً فى شمال إنجلترا فى تلك الأيام) وتركز على تعرضه فى هذه الرحلة لتجربة التيه فى أصقاع غريبة موحشة ، ويعد أن عاش على الشرِّ فى وحدةٍ ووحشةٍ وتفردٍ ، إذا بالطبيعة تلعب بخياله وتلقنه درساً قاسياً ، حين يُشرف على الموت وينقذه حماره ، فيجمله إلى أسرة فقدت عائلها فترعاه وتحضنه ، ويتعلم من صحبة هؤلاء البشر ما يسميه الراوى 'قداسة قلب الإنسان'

ولما كانت الطبيعة هى البطلة هنا أيضاً إذ تسببت فى إثارة مخيلة بيتر بل وتعليمه معنى العلاقة الإنسانية ، فإنه يضع القصيدة بين قصائد المخيلة (أو الخيال) (Poems of the Imagination) فهو يرجع عودة الصلاح فى نفس بيتر إلى قوة المخيلة ، وهى القوة التى أحييتها الطبيعة .

وهناك قصائد أخرى لا أرى داعياً للإفاضة فى ذكرها منها **سائق العربى (The Waggoner)** التى تتكون من أربعة أناشيد متفاوتة الطول ، ومن سطور رباعية التفعيلات ، يشترك كل سطران فى قافية واحدة ، مع بعض الاستثناءات ، ومن ثم فهى من بحر غير بحر الأيامب الخماسى الذى كتب به الكلاسيكيون المزدوجات المقفاة أو البطولية (heroic couplets) وكتب به شيكسبير شعره 'المرسل من القافية' أى الخالى منها ، وكتب به ميلتون شعره الملحمى غير المقفى . ويبلغ عدد أبيات القصيدة فى مجملها ٨٥٥ سطراً ، وهو يضعها بين قصائد الواهمة (Poems of the fancy) ولم يرد نشرها حين كتبها عام ١٨٠٥ ، ولكن إلحاح الناقد والأديب تشارلز لام جعله ينشرها بعد بيتر بل عام ١٨١٩ .

ولا أنكر أنني قد تأثرت أيضاً بالشاعر بايرون فى أسلوب
القص والاستطراد ، وقد يكون غريباً ذلك التأثر فى هذه
المحاكاة للشاعر وردزورث (وهو الذى كان بايرون يسخر من
أبطاله البسطاء والبلهاء) ولكن الشاعرين يتفقان فى الكثير ،
مثلاً يختلفان فى الكثير ، ولنضرب مثلاً بروح الدعابة التى
تشيع فى بعض أجزاء قصيدة 'الغلام الأبله' وتبلغ ذروتها فى
قصيدة 'بيتر بل' ، ولنتساءل ألم تبشر بروح الدعابة عند
بايرون؟ ولنتنظر إلى علاقة قلب الإنسان بالطبيعة التى يعالجها
وردزورث معالجة جادة ويجعلها من محاوره الكبرى ، بل ويصعد
بها إلى مصاف الإحساس الصوفى فى الطبيعة، ولنتساءل ألا نجد
ذلك أيضاً فى بايرون؟ ولقد نُشِرتُ ترجمات للشاعرين
(مختارات من الشعر الرومانسى لوليم وردزورث -
القاهرة ٢٠٠٢ ودون جوان ٢٠٠٤) وأعتقد أن القارئ لن يعدم
فيهما نماذج لما ذكرته أخيراً .

ولكننى - مع إقرارى بالتأثر فى الموضوع وأسلوب القص -
أنتهجُ لنفسى نهجاً عربياً صرفاً، يتجلى فى أنماط النظم (البحر
الوافر) والقافية التى تتحد فى كل فقرة ، وإن تغيرت من فقرة

إلى فقرة ، وفى تحاشى اللغة 'العامية' (عند بايرون) أو لغة الحديث اليومي (عند وردزورث) إذ التزمتُ بالفصحى باستثناءات نادرة ، وأما عن 'مادة' القصة نفسها فهي مستقاة من واقع شهادته طفلاً ، وروى لى الرواة ذبول القصة التى لم أشهدها ، أى إن 'معزة' شخص حقيقى رأيته ، وسمعت حديثه (وقصته لا يزال يذكرها الكثيرون من الأحياء من أبناء جيلى) وأما ما عدا ذلك فمن ألوان الخيال التى أضفيتها عليه ، وأما المقبرة التى اكتُشِفَتْ فى الأربعينيات فى رشيد ، فهي من العصر اليونانى / الرومانى ، (لا الفرعونى) وتقع فى أقصى شمالى رشيد ، فى منطقة 'أبو الريش' ، وباقى التفاصيل من الخيال . كما أن قصيدتى تختلف فى طول الفقرة (١٦ سطراً أو ثمان قوافٍ فى كل منها) ووحدة القافية فى كل فقرة - كما ذكرت .

وأما عن 'الحريات' أو 'الرُّخَص' التى أبحثُها لنفسى فى معالجة بحر الوافر فلا أود الإفاضة فيها ، ويكفى ما يذكره الراوى نفسه عنها فى ثنايا القصة، وأخيراً أقول إن تجربة الشعر القصصى جديدة وممتعة، على ما فيها من إرهاب وإنهاك، وتنويع القافية قد يأتى بكلمات غير شائعة ، وأعتقد أن شرحها فى الهوامش مفيد لمن قد تستعصى عليه من قراء الشعر ومحبيه

(بناءً على اقتراح بعض الأصدقاء) ، فالقصيدة باللغة العربية المعاصرة ، وتنتفع بالتنوع الذى جاء به شعر التفعيلة - فى معظمها - ولكن الالتزام بقافية واحدة فى كل فقرة (مع تنويع أشكال القوافى التى تشترك فى روى واحد) استدعى إلى ذاكرتى قوافى من شعر القدماء الذى كنت حفظته فى طفولتى وصباى ، فكنت أعود إلى دواوينهم أتيقن من معانيها بل ومن وجودها نفسه ، إذ ما أكثر ما تخون المرء ذاكرته !

وأخيراً لابد أن أشكر من قرعوا شعرى (أصداء الصمت - ١٩٩٧ ، حورية أطلس - ٢٠٠١) فوجدوا فيه 'شيئاً' ، فأنا لا أزعم الشاعرية ولا أراحم الشعراء ، ولكننى أقدم بكل تواضع قصة منظومة مقفاة وقد يكون بها شعر ، مثلما قدمت مسرحيتين منظومتين من قبل هما الغريان (١٩٨٧) وجاسوس فى قصر السلطان (١٩٩١) - وقد يكون فى أى منهما شعر ، ومثلما قدمت قصة طوق نجاة (٢٠٠٤) وأمل أن يكون بها (وبهذه) شعر !

محمد عناني

القاهرة - ٢٠٠٤

حكاية معزة

استهلال

(١)

سأفتتح الحكاية يا صحابي
بما لم تعهده من الخطاب
وتأكيد لمن خشي التعالى
بأنني لن أخلق في السحاب
ويقتصر الترتيم في نشيدي
على ما كان في صدر الشباب
أروم الصدق فيما سوف أروي
وأنفر من أقاصيص الكذاب
وحتى إن تكن عند البرايا

عَذَابًا لَسْتُ أَحْفَلُ بِالْعَذَابِ
فَلِلصَّدَقِ الْمُنْعَمِ خَيْرٌ وَقَعِ
وَيَحِلُّوْا إِن حَلَا نَعْمُ الرَّبَّابِ
تَرَوْنَ بِهِ شَوَارِدَ قَدْ تَخَفَّتْ
وَأَلَوْنَا مِنَ الْعَجَبِ الْعُجَابِ
فَهِيَا لِلْسَفِينِ إِذْ اسْتَعَدَّتْ
لنَرْكَبْ ثُمَّ نُبْجِرْ فِي الْعُبَابِ !

(٢)

وَأَبْدَأْ إِنْ غَفَرْتُمْ يَا رِفَاقِي
بِلا مَلَقٍ لَكُمْ وَبِلا نَفَاقِ
بِمَدْحِ سَخَائِكُمْ فِيمَا بَذَلْتُمْ
فَأَنْتُمْ فِي الْوَرَى خَيْرُ الْعِتَاقِ (*)

(*) العتاق : الكرام .

ولم أكُ قد ذكرتُ لكم عَنائي
بما فى حِرْفَتى وبما أَلاقى
فلستُ أريقُ ماءَ الوجه ذُلًّا
كأننى طامعٌ فى غير باقٍ
ولستُ أَمَسُ مالاً من لئيمٍ
جَدًّا(*) الأَجْبَاسِ(**) مُرٌّ فى المذاقِ
ولكننى لجأتُ لمن يَقِينى
هَوَانَ السُّؤْلِ أو صَعَبَ المَراقى
فأَنتُم مَلَجئى وبِكمُ ملاذى
من الدنيا العسيرةِ والمشاقي

(*) جَدًّا : عطاء .

(**) الأَجْبَاسِ : الغلاظ الجفاة .

سئمتُ سباقَ أهلِ الأرضِ حتّى
خرجتُ من السَّبّاقِ بلا سباقٍ !(*)

(٣)

بكرتُم بالحضور لتسمعوني
وهذا الحرص قد أذكى شجونى
وسوف تروح أنغامى وتغدو
بما قد يقتضيه أبو الفنون !
ودأبُ النّظم أن يأتى رتيباً
بتهديبِ الفروع من الغصونِ
ولكنى أغير فى القوافى
مطيعاً همسَ شيطانِ الجنونِ
وسوف تطول أبياتى وتقصرُ

(*) السباق : الأولى تعنى المضمار ، والثانية تعنى القيد ، و«بلا سباق» تعنى حرّاً.

مخالفةً لميراثِ القرون !
فإنَّ يَكُ في لُحُونِي اليومَ خُلفُ
فبعضُ السحرِ في خُلفِ اللُحُونِ
وإنَّ كانتَ لكم تبدو جنوناً
جنونُ الشعرِ من بعضِ الفتونِ
ثَقُوا في صدقِ الحاني لأنِّي
سأروى ما ارتوت منه عيوني !

(٤)

لقد طالت مقدمتي ولكنْ
جميلُ الشعرِ مبسوطُ البيانِ
وقد رُمُتْ حكاياتُ تُسَلَّى
وطبعُ القصِّ قد أرخى عناني
فعدتُ إلى صباي أرومُ شيئاً

غريباً مدهشاً في كل أن
هناك وجدتُ ما استبقاه قلبي
بلحنٍ من أناشيدِ حسانٍ
سأنشدهُ إذا شئتمْ عليكم
ليضحك من يرى عبثَ الزمانِ
ويبكي من رأى الأحزان فيه
فلا أبغى سوى صدقِ المعاني
ولم أعمدْ لتزويقِ بلفظٍ
إذ التزويقُ من زللِ الجنانِ (*)
وكيف أخونُ بالألفاظِ قلبي
وصدقُ القلبِ في صدقِ اللسانِ ؟

(*) الجنان : القلب

النشيد الأول

(٥)

وفارسُ قِصَّتِي الفلاحُ 'مِعْزَه'
سَمِعْتُ به صَبِيًّا غَيْرَ وَاِعِ
بِكُلِّ دَلَالَةِ الْأَسْمَاءِ مِنْ حَوْطٍ وَ'حِرْزَه' (*)
سَمِعْتُ به وَشَطَّتْ بِي الظَّنُونُ
فكيف يكون إنساناً وَعَنْزَه ؟
لماذا يا تُرى أَسْمُوهُ - فى المِيلاد - مِعْزَه
فهل فيه مِثَابُهُ مِنْ جِدَاءٍ (**)
بِلِهْزِمَةٍ وَيَلْهَزُ كُلُّ لَهْزَه ؟ (***)

(*) الحِرْزَة : التحرز فى اللهجة الدارجة بالوجه البحرى بمعنى اتقاء عين الحسود .

(**) جداء : جمع جَدَى

(***) لهزيمة : عظم ناتى تحت الحنك ، يستخدم فى رشيد للإشارة إلى مقدمة

خطن الجدى ، ومنها تتدلى لحيته .

يلهز : يضرب أو يطعن ، والمقصود ينطع .

وَصَوَّرَ لِي الْخِيَالَ عَجِيبَ وَجْهِ
بِقَرْنٍ يَلْتَوِي وَفَمٍ طَوِيلٍ
يَسِيلُ لِعَابُهُ فِي كُلِّ مَنْزَعَةٍ !
سَمِعْتُ بَأْنَ وَالِدَةَ الصَّبِيِّ رَأَتْ مُنَامًا
بِهِ جَدًى شَدِيدُ الْبَأْسِ يَقْفِزُ كُلَّ قَفْزَةٍ
رَوَتْ لِلنَّاسِ مَا ظَنَّتْ فَقَالُوا
أَجَدُّ فِي الْمَنَامِ ؟ أَتَتُّكَ عِزَّةُ !
فَإِنْ خَفَّتِ الْعَيُونَ فَلَا تُسَمِّيه بِشَيْءٍ غَيْرَ «مِعْرَءَةٍ» !

(٦)

وَجَاءَ الطِّفْلُ أَبْيَضَ ذَا جَمَالٍ
صَبُوحُ الْوَجْهِ فِي الْعَيْنَيْنِ زُرْقَةٌ !
وَشَعْرٌ أَحْمَرٌ وَفَمٌ دَقِيقٌ

ملاح وجهه البسام طَلَقَهُ ! (*)

وكان الطفلُ ذا طبعٍ رقيقٍ
فقالوا أَحْسَنَ الْخَلْقُ خَلَقَهُ !
وحار الوالدان بمن أتاها
وزاد الحبُّ فى الجَنَبَاتِ حُرْقَهُ !
وخافا الحاسدين بكل حَذْبٍ
وزاد الخوفُ خَفَقَ القلبِ خَفَقَهُ
وربُّ البيتِ فى همٍّ مُقِيمٍ
يرى الموتَ الزَّوَامَ بَأَى فُرْقَهُ
وعاهدَ نفسه أن ما توانى
إذا هو وَسَّعَ الرِّزَّاقُ رِزْقَهُ
سَيُرْسِلُهُ إلى خيرِ المدارسُ
لِيُثَبِّتَ ما يراهُ قد استَحَقَّهُ !

(*) طَلَقَ : أى ضاحكة بسامة (هنا) .

وَسَبَّ الطِّفْلُ مِعْزَةً فِي هِنَاءٍ
بِكُلِّ بَوَادِرِ النِّعَمِ الْكَثِيرَةِ
بِمَنْأَى عَنْ عَيُونِ النَّاسِ فِي حَقْلِ بَعِيدٍ
وَبَيْنَ زُرُوعِ وَالِدِهِ الْوَفِيرَةِ
يُلْهَى النَّفْسَ بِالْأَلْعَابِ حَتَّى
أَتَى يَوْمَ النُّزُولِ إِلَى مَدِينَتِهِ الْكَبِيرَةِ
أَتَاهُ الْوَالِدُ الْمَرْهُوُّ صُبْحًا
بَأُرْدِيَةٍ مِنَ الرِّثِّ الَّذِي
لَا يَفْضَحُ الْعَيْنَ الْقَرِيرَةَ !
فَقَلْبُ الْوَالِدِ الْمَرْهُوِّ يَطْفَحُ بِالْأَمَانِي
وَبِالْأَحْلَامِ فِي نَجْوَى السَّرِيرَةِ !
يَحَادِثُ نَفْسَهُ فَالْيَوْمَ يَوْمَ السَّعْدِ يَوْمَ الدَّرْسِ

يوم وداع قريته الصغيره :
”وسوف يبرز أقران الدراسة ذات يوم
”بما يهديه من نورٍ بأعماقِ البصيره
”عقولُ جميع أهل القرية الصغرى غريره!“ (*)

(٨)

ولم تبخل عليه الأمُّ ذاك اليوم بالدعوات حتى
تعالى الصوتُ ذو النغم الجميلِ
وجاءت كلُّ أختٍ بالفطائرِ داخل الأكياس كيما
تُعِينَ الطفلَ في السَّفر الطويلِ
وكان لديهمو جارٌ حسودُ
تميّز عندهمُ ’بدمٍ ثقيلِ‘
فجاء يخبُّ يشتمُّ النوايا

(*) غرير : المقصود الساذج أو من لا تجربة له .

”لِيَعْبُرَ مِنْ رُؤْيَى الْقَصْدِ النَّبِيلِ“

فَقَالَ بَأْنَهُ سَمِعَ الْحَمَائِمَ فِي الصَّبَاحِ

فَجَاءَ فِي هَدْيِ الْهَدِيلِ

وَيَشْرَاهُ سَتَصْدُقُ فِي الضَّحَى مِنْ بَعْدِ

أَنْ سَمِعَ الْهَوَاتِفَ فِي نَسَائِمِ ذَلِكَ الْفَجْرِ الْبَلِيلِ

وَأَقْسَمَ إِنَّهُ لَمْ تَشْهَدْ الدُّنْيَا

لِذَاكَ الْطِفْلَ يَوْمًا مِنْ مَثِيلِ

وَقَالَ أَتَيْتَكُمْ بِتَمِيمَةٍ عَلِيَا

لِتَحْمِيَ الْطِفْلَ مِنْ عَيْنِ الدَّخِيلِ !

(٩)

وَأَهْوَى الضَّيْفَ فَوْقَ الْطِفْلِ تَقْبِيلًا وَضَمًّا

وَكَانَ الْوَالِدَانِ بِحَيْرَةٍ بَلْ جَاءَ مَا

قَالَ الْغَرِيبُ أَسَى وَهَمًّا

ورداً رُقِيَّةَ العينِ الحسودِ وقبل ما
تؤذى صبيهم الصغير شجىً وسُقماً
وظلت تقرأ القرآن والدَّةُ الذى ما زال
لا يدرى إذا كان الذى يلقاه وهماً !
وقالت أمُّه هيا لترحلْ
لموعدك الذى قد أن حَتَمًا !
وسارا فى الطريق إلى العُريَّةِ
صامتينِ كمن يجوزُ اليومَ يَمًّا
وكان الوالدُ الهَرَمُ الذى حمل المشقَّةَ
لا يزالُ كمن يرى فى النومِ حُلَمًا !
يداعبُ رأسَهُ ما سوف يأتى
به التعليمُ للأبناءِ يَوْمًا -
”وقُلْ يا ربِّ زدنى اليومَ علماً !“

وجاشت في ثنايا النفس آمال وأفكار

كقطرٍ من رحيقٍ سال عذباً :

”ألا يغدو نطاسياً لبيباً

”يضارع أبرع ’الحكماء‘ طباً ؟

”يعالج كل داء باقتدار

”ويذكي القلب تحناناً وحباً !

”فوالدة الصبى رعتُهُ حتى

”تسامت ذاته روحاً وقلباً !

”غدتُ حبَّ الجميع بكل عرقٍ

”وحُبَّ الصديق حين نما وشبَّ

”وبسمته على الشفتين دائمة

”ولم يُعهد به أن قال كذباً

”بل اللهو المدام بكل شئ في الغداة
”وفي العشي كمن يرى دنياه لعباً
”وقد أن الأوان ليطرح اللهو المقيم ويحتسى
”كأس العلوم يعبُّ كالأخبار عباً !

(١١)

ولاحت هامة الشمس الجميلة
فوق أفق الشرق تنظر في حياء
ولم تلبث ظلال الصبح أن طالت
كأشباح تراقص في الهواء !
وطافت بالعريّة بعض أسراب الطيور
تطير هوناً تملأ الدنيا بألوان الغناء
وباعدت النسائم من سحائب

كانت الغيمَ الذى حملته عاصفة المساء .
أحس بها الصغير بصدره فغدا
يُقَهِّقُهُ فجأةً مثل الذى غشيتَه غاشية الهناء
ولم يُبَدِّ العجوزُ سوى السعادةِ
بالذى يلقاه من طفل الرجاء !
ولم يَعْجَبْ لماذا يَضْحَكُ الطفلُ الصغيرُ لعله - أو قل
لعل ملاكه أوحى إليه ببعض آيات الصفاء !
فطفل اليوم صافى النفس قد يستشرف الغيب الذى
تخفيه أقطار السماء !

(١٢)

وما انْقَشَعَ الضبابُ وسادَ ضوءُ الشمسِ حتى
شاهدَ الجناتِ فى أرجاءِ بلدتهِ رشيدُ !

ولاحت للعيون طيوفُ مدرسة الوليد !
وإذ بخواطرِ الماضي تُردُّ من جديد :
”حباني الله بالولدِ المرَجى آخر العنقود !
”وذاك ثوابُ ما أبديتُ من صبرٍ مديدُ
”تكاكأت(*) البناتُ على شبابي فالتهمنَ المالَ لكني صمُودُ!
”شكرتُ الله ما يأتى بظلمٍ للعييدُ !
”وعاندني الزمانُ المرُّ سبعةً مُردِّفات(**)
”فلمُ أحفلُ بأفعالِ العنيدُ !
”وكادَ اليأسُ يدركُنَا فزوجي
”تعافُ الحملَ لا ترجو المزيدُ

(*) تكاكأت : تجمعت وتزاحمت (أى كثر عدد بناتي) .

(**) سبعةً مترادفات : المقصود أنه أنجب سبع بنات متتاليات .

”وكان قنوطها كالزَّمْهَرِيرِ يكادُ أن يَغْشَى حياتي !
”وكدنا نستحيلُ إلى جليدٍ !
”ولكنني ذكرتُ الله دوماً ما على الله بعيدُ !
”وجاء الطفلُ مِعْزَةً خير ما يبغى المُرِيدُ !“

(١٣)

وعند مشارفِ البلدِ الكبيرةِ
كانت الطرقاتُ يغمرها البَلَلُ
بُحَيْرَاتُ صِغَارٍ يجتمعنَ ويفترقنَ
وبينهنَّ جبالُ طينٍ أو وَحَلْ
وكان السائقُ النشطُ الهَمَامُ
يخافُ من عَطَبٍ لديه بالعَجَلِ
ويُحْكَمُ قبضةُ الرُّسْنِ (*) القديم على

(*) الرُّسْنُ : الزَّمام أو المقود .

حصانٍ لا يكلُّ ولا يملُّ من العملِ
وكان يخافُ من هطلِ أجشٍّ يكادُ -
مثل الأمسِ - أن يذرَ المدينةَ في شللٍ !
وحاول أن يخففَ سرعةَ السيرِ الحثيثِ
كَمَنْ تَمَلَّكَهُ خَبَالٌ من وجَلٍ
ولكن الدُّرُوبَ الهابطاتِ تكادُ
تدفعُهُ لشيءٍ من زَلَلٍ
ولم يلبثُ أن ابتعدَ التخوفُ والخَبَلُ
وأرخی للحصانِ الحبلَ عندما وصلَ !

(١٤)

وكان فناءُ مدرسةِ الصغارِ يموجُ
بالأصواتِ من صَخَبٍ وبعضِ الهسَّهسةِ (*)
(*) الهسَّهسةُ : الأصوات الخفية .

إلى دَقَاتِ أَجْرَاسِ بِأَقْصَى الدَّارِ
كَانَتْ كَالصَّدَى الْمَكْتُومِ مُنْهَمِسَةً (*)
وَعِنْدَ تَرْجُلِ الزَّوَارِ جَاءَ الْحَارِسُ الْعِمْلَاقُ
يَخْطُو بِالْخُطَى الْمَحْسُوبَةِ الْمُتَبَهِّسَةِ **
وَلَكِنَّ الْأَبَ الْمَزْهُوَّ لَمْ يَخْشَ الْمَهَابَةَ
فِي الْمَلَامِحِ بَلْ تَقْدَمَ رَافِعًا رَأْسَهُ
وَكَانَ يُحْسِنُ بِالْفَخْرِ الَّذِي لَمْ يَخُلْ مِنْهُ
أَبٌ وَطْفَلٌ عِنْدَ بَابِ الْمَدْرَسَةِ !
وَكَانَ بَجَنْبِهِ كَيْسٌ بِهِ ذَهَبٌ نَضَارُ
لَمْ يَزَلْ فِي مَكْمَنٍ فَتَحَسَّسَهُ
وَأَخْرَجَ مِنْهُ مَا يَكْفِي وَغَمَّغَمَ لِلْهَوَاءِ
وَفِي يَدِ الْعِمْلَاقِ دَسَةٌ

(*) مُنْهَمِسَةٌ : أى مطبوسة غير واضحة .

(**) المتبهسة : المتبخترة .

تَبَسَّمَ حَارِسُ الْعِلْمِ الْمُهَيْبِ وَأَفْسَحَ الْبَابَ الرَّحِيبَ
لِزَائِرٍ لَمْ يَعُدْ حَدْسَةً !

(١٥)

وَفِي ثِقَّةٍ تَقْدُمُ نَحْوَ مَا يَبْدُو بِسَاطًا
عِنْدَ مَدْخَلِ ذَلِكَ الْقَصْرِ الْمُنِيفِ
لَقَدْ غَلَبَ الْحَيَاءُ وَإِنْ يَكُنْ فِي قَلْبِهِ
بَعْضُ الْوَسَاوِسِ هَامَسَاتٍ كَالْحَفِيفِ
وَقَالَ لِنَفْسِهِ لَا بَدَّ أَنْ الْهَمْسَ مِنْ أَصْدَاءِ
صَوْتِ الرِّيحِ عَالِيَةِ الزَّفِيفِ (*)
وَكَيْفَ يَكُونُ مَا يَدْعُو لَخَوْفٍ بَعْدَ مَا
وَكَلَّ الْحَدِيثَ لِبَعْضِ دِينَارٍ حَصِيفِ

(*) الزَّفِيفُ : هُوَ صَوْتُ الرِّيحِ السَّرِيعَةِ .

خطا خُطُواتِهِ الأولى وبِسْمَةِ مِعْرَةِ
النشوانِ تَغْمِرُهُ بِإِحْسَاسٍ رَهِيفٍ
وعند الباب كان الحارسُ الخاصُ
الذي فَتَحَ المِكاتِبَ للضِّيُوفِ
ولم يَجْرُؤْ على تَقْدِيمِ شَيْءٍ للمَهْدَبِ
صاحبِ البِسماتِ والوجهِ العَفِيفِ
ومَرَّتْ بِالْأَبِ المِلْهَوفِ أَوَاقَاتُ تُخَالَطُ
بَيْنَ دِفْءِ القَلْبِ والخَدَرِ اللَطِيفِ

(١٦)

ولم تَلْبِثْ نَسَائِمَ صُبْحِهِ البَسَامُ أَنْ حَمَلَتْ
لصَاحِبِنَا لَحُونًا مِنْ رَجَاءٍ
بأَصْوَاطٍ تَعَالَتْ ثُمَّ لَاحَ 'النَّاظِرُ' المَرْهُوبُ
تَعْلُوهُ سَمَاتُ الكِبْرِيَاءِ

وكان وراءه رجلٌ يلاحقه بأقوالٍ
وألفاظٍ تنمُّ عن الغباءِ
وكان 'الناظر' الكُثُومُ مكتنزاً(*) يكادُ
يضيقُ جِلْدًا بالعروقِ وبالدما
ولكنَّ الجَهَامَةَ(**) فى ملامحِ وجهه
رَدَّتْ على من ساقَ أَلْفَاظَ الرِّياءِ
وفى بعضِ الفظاظَةِ ساءلِ الفلاحِ
عمًا يطلبُ الطفلُ الصغيرُ بلا التواءِ
ورَدَّ عليه صاحبنا بكيسِ المالِ فى يَدِهِ
يكادُ يَضِجُ من فَرَطِ الرُّوءِ
تهلَّلَ وجهَ ناظرِنا المُبَجَّلِ واستحالتُ

(*) الكُثُومُ : الممتلئ لحم الخدين والوجه .

المكتنز : المجتمع الممتلئ الجسم .

(**) الجَهَامَةُ : العيوس .

(١٧)

وَتَمَّ الأَمْرُ والتَّحَقُّ الصَّغِيرُ بِمَدْرَجِ التَّعْلِيمِ
فِي صَفٍّ يَسْمَى أَوَّلِ الدَّرَجَاتِ
وَأَصْبَحَ سَائِقُ الْبَيْتِ الْكَبِيرِ - وَبِانْتِظَامٍ -
يَصْحَبُ التَّلْمِيذَ فِي الْغَدَوَاتِ وَالرُّوحَاتِ
وَبَزَّ جَمَالُهُ الْأَقْرَانِ بَرًّا فَانْتُنَّتْ
كُلُّ الْعَيُونِ تَحْفُهُ بِحَوَاسِدِ النَّظَرَاتِ
وَكَانَتْ أُمُّهُ تَخْشَى الَّذِي يَلْقَاهُ فَانْطَلَقَتْ
تُعِدُّ لَهُ الرُّقَى(**) مِنْ شَرِّ مَا هُوَ أَتٍ !
وَلَمْ يَنْسَ الْأَبُ الْمَشْغُوفُ أَنْ يَحْتَاطَ أَوْ

(*) الْجُهْمَةُ : ظُلْمَةٌ آخِرُ اللَّيْلِ .

(**) الرُّقَى : جَمْعُ رُقِيَّةٍ وَهِيَ الْعَوْدَةُ .

يرجو السلامة فى شذّا الأذكارِ والدّعواتِ !
وأصبحتِ المادبُ شِبّهَ تقليدٍ يُراعَى -
وأهلُ الذّكرِ فى حربٍ على الحُسّادِ بالآياتِ !
وبالغِ أهلُ بيتِ الطّفلِ فيما يبتغونَ
من الحمايةِ واجتذابِ الخيرِ والبركاتِ !
وذا عَ شُطُوطِ أهلِ البيتِ حتى قال بعضُ الناسِ
إنهمو ذوو الشّطّحاتِ والنّزواتِ !

(١٨)

مضى شهرٌ ومرّتْ أشهرٌ والطفلُ لا
يُضفى عليه العلمُ نوراً
ولم يعبأ بذلكِ أى فردٍ فالزّمانُ
أتى بما هزّ الجوانحَ والصّدورا

فإن ذُيُوعَ تَقْوَى الشَّيْخِ قَدْ أَسَرَ الْجَمِيعَ فَكُلُّهُمْ
يَبْغِي الَّذِي يَعلُو بِهِ دَرَجًا طَهُورًا -
مُصَاهَرَةً وَعِيشًا فِي رَحَابِ تَقَاهُ أَوْ
شَرَفَ انْتِسَابٍ لِلَّذِي يُمَسَّى غَدًا مَبْرُورًا
وَلَمْ يَتَوَانَ رَبُّ الْبَيْتِ عَنْ
إِنْفَاقٍ مَا قَدْ يَقْتَضِيهِ الْعِبَاءُ مَسْرُورًا
فَكَانَ يَبِيعُ قَبِيرًا فَقِيرًا مِنَ الْأَمْلاكِ
حَتَّى كَادَ أَنْ يَغْدُو فَقِيرًا
وَلَكِنَّ السَّرَّاءَ (*) أَتَوْا إِلَيْهِ بِكُلِّ مَهْرٍ سَابِغٍ
وَمِنْ الْهَدَايَا مَا اسْتَمَرَ شُهُورًا
وَزَوْجَ وَالِدِ الطِّفْلِ الْبَنَاتِ جَمِيعَهُنَّ
فَبَاتَ يَغْتَرِفُ الْهِنَاءَ وَالْحُبُورًا

(*) السَّرَّاءُ : جمع سرى وهو الشريف .

ومَرَّ الْعَامُ وَالطِّفْلُ السَّعِيدُ يَرَى
 بِدَرْسِ الصُّبْحِ تَسْرِيَةً وَلَهْوًا
 وَإِنْ طَلَّبَ الْمُعَلِّمُ أَنْ يَرُدَّ عَلَى سَوْأَلٍ
 أَتَى رَدُّ الصَّغِيرِ عَلَيْهِ لُفْوًَا
 وَلَكِنَّ الْمَسَامِعَ فِي مُحِيطِ الْأَهْلِ
 قَدْ تَجِدُ الَّذِي يَحْكِيهِ حُلُوًا
 فَإِنْ زَلَّ اللِّسَانُ يُقَالُ إِنَّ الطِّفْلَ
 لَنْ يَنْجُو مِنَ الْأَخْطَارِ سَهْوًا
 فَهَذَا الْعَامُ تَمْهِيدٌ وَتَدْرِيبٌ
 عَلَى الدَّرْسِ الْجَدِيدِ وَسَوْفَ يُطَوَّى
 وَكَانَ الطِّفْلُ يَشْهَدُ كُلَّ ذَاكَ
 وَجِسْمُهُ الْمَهْزُولُ مِثْلَ الشَّمْعِ يَضْوَى(*)

(*) يَضْوَى : يَضْعَف .

كَأَنَّ اللَّعْبَ يَقْتُلُ الَّذِي غَرَسَ الْمُعْلَمُ
بل وقد يمحوه مَحْوًا
ولم يجدْ الأهالي في جُنُوحِ الطفلِ
أو في لهوهِ ما يقتضى الشكوى !

(٢٠)

ومرت بعدها الأعوام تكشف أن مِعْزَةَ
ليس يبلغُ في دُرُوسِ العِلْمِ شَأْوًا (*)
ولكنَّ الأبَّ الهرمَ الهُمَامَ يخالُ وهماً
أنَّ جَوَّ الكونِ سوف يظلُّ صَحْوًا !
فَرَبُّ الناسِ بَارِكْ كُلَّ بِنْتٍ -
بما يعنى رضاه وأنَّ في الآفاقِ صَفْوًا
أَفَاءَ عليه بالخيرِ العميمِ ومنذ شَبَّ الطفلُ

(*) الشَّوُّ : الغاية والمدى أو الشوط .

أَلْفَى قَلْبُهُ قَدْ فَاضَ زَهْوًا
وَلَمْ يَأْبَهُ لَتَحْذِيرِ الْمُعَلِّمِ حِينَ قَالَ بَأْنَهُ
يَنْبُو(*) عَنِ التَّعْلِيمِ نَبْوًا
وَأَعْرَضَ قَائِلًا إِنَّ الصَّبِيَّ يَجُوزُ صَفًّا بَعْدَ صَفٍّ
حَائِزًا مَا كَانَ يَهْوَى !
وَأَمَّا الْامْتِحَانُ فَسَوْفَ يَكْشِفُ عَنْ حَقِيقَتِهِ
وَأِنْ يَظْهَرُ لَخَلْقِ اللَّهِ خُلُوعًا !(**)
فَيَوْمَ الْمَحْنَةِ الْكُبْرَى يُؤَكِّدُ مَنْ يَخِيبُ
وَمَنْ يَزِيدُ بِهِ بَهَاءً أَوْ عُلُوعًا !

(٢١)

وَحِينَ أَتَى لِشَيْخِ الْبَيْتِ سَاعَ يَحْمَلُ الْخَبَرَ الْعَجِيبُ

(*) يَنْبُو : يَبْتَغِدُ وَيُعْرِضُ .

(**) الْخُلُوعُ : الْخَالِي أَوِ الْفَارِغُ الْبَالُ .

تولّى الشيخُ عنه مُدبراً بلْ لمْ يُعَقِّبْ
وكيف يُظنُّ أنَ الطفلَ يوماً قد يخيبُ ؟
وزاد الناسَ فى تأكيدِ أنباءِ الرسوبِ
ولجَّ (*) الشيخُ فى الإنكارِ والتكذيبِ
يقولُ تخرّصَ (**) الناسُ الكلامَ
ويرجفونَ (***) بدافعِ الحسدِ المريبِ !
فإنى قد دعوتُ اللهَ يوماً عندما حلَّ المشيبُ
فأوهبَنِ الصبىَّ وسرّنى
حين استجابَ وإنه نعمَ المُجيبُ !
وقال تأملوا خُصُلَاتِ تَبْرِ الشَّعْرِ فى رأسِ النَّجيبِ !
أليسَ بها بيانُ الصدِّقِ عن ذَهْنٍ لبيبِ ؟

(*) لَجَّ : أصرَّ .

(**) تخرّصَ : لَفَقَ وكَذَبَ .

(***) يرجفونَ : يرددونَ الأخبارَ السيئةَ .

وفى الرأسِ التى ازدانتُ
خيالُ جامعٍ أبداً رحيبُ
وفكرُ مثل زرعِ الصيفِ مزهُواً
يتيهُ به على العودِ الرطيبِ !

النشيد الثاني

طَلَبْتُ الْحَقَّ فِي صَدَقِ اللِّسَانِ
 وَإِنْ سَقَتْ الْغَرِيبَ مِنَ الْمَعَانِي
 أَنَا الرَّاوِي الَّذِي يَحْيَا بِدَهْرٍ
 كَجَمْرِ غَضَى* فَأَحْرَقَ لِي الْأَمَانِي
 وَلَيْسَ رِمَادُ عُمْرِي غَيْرَ بَثٍّ
 مِنَ الْأَحْزَانِ فَاضَ بِهِ جَنَانِي
 فَإِنِّي قَدْ شَهِدْتُ الطِّفْلَ يَنْمُو
 وَهَمْتُ بِهِ هِيَامًا غَيْرَ وَأَنْ
 دَنَوْتُ إِلَيْهِ فَاسْتَعَذَّبْتُ شَكْلًا
 جَمِيلًا مُرْهَفًا غَضَّ الْكِيَانِ
 وَلَكِنْ الْجَمَالَ الْحَقُّ عِنْدِي

(*) جمر الغضى : الجمر الذي يظل مشتعلًا زمانًا طويلا .

جمالٌ ليسَ يبدو للعيانِ
كطبيبٍ ساربٍ(*) فى بعضِ روضِ
تبثُّ به أزاهيرُ الجنانِ
رنينُ غائبٍ عن كلِّ أُذنٍ
وتسمعهُ القلوبُ بكلِّ أن

(٢٣)

أعود لوافر الإيقاع من ألحانى
وأرسل مُهَرَّةَ الشعرِ الجديدِ بلا لجامٍ فى زمانى
وأرجع للذى شابَ المنعمَ والمدللَ
كى أُبينَ نزغةَ الشيطانِ فى الإنسانِ
لقد درَجَ الصبىُّ على استجابةٍ والديه لكل ما

(*) ساربٍ: منطلق .

يرجوه دون حساب ما فيه من الخُسرانِ
فكان يخالط الصبيان في فرج الدُّروسِ
ويجتبي (*) منهم طبائع من هوى الصبيانِ
فأول ما تعلمه بلهو الطفل أن يغدو
ليَقْطِفَ بعضَ فاكهةٍ من البستانِ
وكان بدايةً يَنَسُورُ (**) الجدرانَ في غَبَشِ الصباحِ
ويهدى بالنجم (**) عند تسوّر الجدرانِ
وقد ينسابُ في البستانِ في رفقٍ
كَصِلٍّ (****) زاحفٍ أو قل كَحُلْمٍ طاف بالوسنانِ
فإن وجد الذي يبغيه أو ما يَحْلُبُ العينَ انثنى يأتي
بما يجنيه من ثمرٍ على الأفنانِ !

(*) يجتبي : أى يكتسب ويأخذ عنهم .

(**) يَنَسُورُ : يعلو ويتسلق .

(**) غَبَشَ : الغبش ساعة اختلاط النور بالظلمة .

(****) كَصِلٍّ : الصلُّ الثعبان .

وحين يعود بالغنم المرجى للصحاب
 يرى المديح بكل ما سمعا
 فقد يتسابق الأقران في إطراء من
 ركب المخاطر كي يذلل عسر ما امتنعا
 ولم تمض الشهور بلا مزيد من جسارته التي
 جعلته بينهم كنجم ثاقب سطعا
 وكان أولئك الصبيان لا ييغون من
 تلك الصداقة غير ما يجنونه طمعا
 * فلا هو بالذكي ولا العليم وكان
 إطراء الصبي يزيده ولعا
 ويندر أن يخبي أي غنم أو يعود لنفسه
 بالنز مما كان قد جمعا

بلى كان الذى يكفيه أن يحكى لهم
عند المساء بلهجة النشوان ما وَقَعَا
هنا قال الجميع بأن ذاك الطفل يرجعُ فى جسارته
إلى نقصٍ بعقلٍ لا إلى ما فيه قد برعاً !

(٢٥)

أعودُ لما ذكرتُ عن التَّباهى
وكيف تكون أوهام الغرور^(*)
لقد غرَّ الصَّبِيُّ مديحُ قلبٍ
وما وصفوه بالشَّهْمِ الجسورِ
وغرَّدَ فى حناياه السُّرورُ
فكان كمثلِ ألحانِ الطيورِ
وقيلَ له علَّوتَ كمثلِ نسرٍ

(*) الغرور : كل ما غرَّ الإنسان .

يُحَلِّقُ فِي السَّمَاءِ بَيْنَ النُّجُومِ
وَقِيلَ لَقَدْ رَكِبْتَ الرِّيحَ تَسْمُو
فَكُنْتَ الْبَدْرَ بَلْ أَزْهَى الْبَدُورِ
وَإِنَّكَ (*) صَاحِبَ الْقَدَحِ الْمُعَلَّى
وَتَسْطَعُ فِي مَجَالِسِنَا بَنُورِ
وَقِيلَ لَهُ فَأَنْتَ الرَّأْسُ فِينَا
إِلَيْكَ الْحُكْمُ فِي كُلِّ الْأُمُورِ
وَقَلْبُ الْغُرِّ فِي أُذُنَيْهِ يَحْيَا
غَرَامًا بِالتَّبَاهِي وَالظُّهُورِ

(٢٦)

وَمَا فَتَى التَّمَلُّقُ أَنْ أَتَى بِثَمَارِهِ وَالْآنَ

(*) الْقَدَحُ الْمُعَلَّى : الْحِطُّ الْأَوْفَرُ .

لَجَّ الطِفْلُ فِي غُلَوَائِهِ
وَأَصْبَحَ 'مَعَزَةٌ' الْمَسْكِينُ يَعْتَادُ الْوَقُودَ
لَشُعْلَةِ النَّيْرَانِ فِي أَحْشَائِهِ
وَكَانَ الْخَتْلُ ذَا سِحْرِ عَجِيبٍ (*)
شَرَّ مَا يُخْفِيهِ مِنْ أَدْوَائِهِ! (**)
تَعَلَّمَ 'مَعَزَةٌ' الْمَسْكِينُ أَنْ يَرِدَ الْخِيَالَ
لِيَرْتَوِيَ بِالْوَهْمِ مَا قَدْ يَرْتَوِي مِنْ مَائِهِ
وَكَانَ بِكُلِّ مَا يَرَوِي يَرَى فِي الْوَهْمِ
تَحْلِيْقًا بِدُنْيَا مِنْ رَحِيبِ سَمَائِهِ
وَلَمْ يَعْرِفْ أَبُوهُ بَأْنَ دَاءِ الْوَهْمِ يُغْرَسُ فِي
شَغَافِ الْقَلْبِ (***) ثُمَّ يَشْبُ فِي سُودَائِهِ

(*) الختل : الخداع

(**) أدواء : جمع داء .

(***) شغاف القلب : غلافه .

سوداء القلب : حبه أو سوداؤه .

وَصَدَّقَ كُلُّ مَا يَحْكِيهِ طِفْلٌ لَا يَزَالُ يَكْرُرُ الشَّكْوَى
مِنَ الظُّلْمِ الشَّدِيدِ بِدَرْسِهِ وَعَنَائِهِ
وَقَرَّرَ أَنْ يَزُورَ النَّاطِرَ الْمَرْحَ الظَّرِيفَ
لِيَنْقِذَ الْمَسْكِينَ مِنْ بُرَحَائِهِ! (*)

(٢٧)

وعند الناظر 'المرح الظريف' بدا العجزُ
كمن أتى يشكو الليالي
فكان الظهرُ منحنياً وشعرُ الرأسِ أشيبَ
والعظامُ تَبِينُ مِنْ قَرْطِ الْهَزَالِ
وفى الوجهِ الحزينِ دليلُ صِدْقِ مُؤَلِّمِ الْإِفْصَاحِ
عن عَصْفِ اللَّيَالِي بِالرَّجَالِ
فعينا الشيخ غائرتان في جُبٍّ وحولهما الغضونُ

(*) الْبُرْحَاءُ: الشَّدَّةُ.

بَدَتْ عَرُوقًا فِي رِمَالٍ
وشاربه المُشَعَّتُ يَسْتَكِينُ بِلا حَرَكَ
مِثْلَ وَلَهَانٍ تَأْيَسَ مِنْ وَصَالٍ
وَحِينَ تَكَلَّمَ الْمَسْكِينُ أَغْفَاهُ 'الظَرِيفُ' بِبِسْمَةٍ
أَغْنَتْهُ عَنْ طَوْلِ الْمَقَالِ
دَعَاهُ إِلَى الْجُلُوسِ وَجَاءَ بِالشَّايِ الْمُحَلَّى وَانْتَنَى
يُثْنِي عَلَى طَيْبِ الْخِلَالِ(*)
تَطَامَنُ(**) خَاطِرَ الْمَسْكِينِ قَبْلَ سَمَاعِهِ مَا كَانَ
يَرْجُو أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُحَالِ !

(٢٨)

وكان البدءُ بالإطراء قصداً

(*) الْخِلَالُ : الْخِصَالُ أَوْ الصِّفَاتُ .

(**) تَطَامَنُ : سَكَنَ وَهَدَأَ .

كأن المدح ترياقُ القلوبِ
ومهما كان صاحبه كذوباً
فإن النفس تهفو للكُذُوبِ !
وبعضُ الناسِ تعرفُ كلَّ نقصِ
ولكنْ لا تجاهرُ بالعيوبِ
وذكرُ مناقبِ الإنسانِ يُنسى
أسى همَّ قريبٍ أو لُغُوبِ (*)
وكان كذاك شأنُ من استطابَ
المدحَ حتى كاد ينجو من عُطُوبِ (**)
سرى في قلبه القولُ الجميلُ
فكاد يذودُ عنه أذى الهبوبِ
وكاد كيانه أن يستضيئاً

(*) اللُغُوبُ : التعب والإرهاق والإعياء .

(**) عُطُوبُ : من العَطَبِ وهو الهلاك .

بشمسِ الشَّرْقِ في وقتِ الغروبِ
فإِذْ بكلامِ 'ناظرِهِ' عَصِيبُ
ويكسو الوجهَ منه بالشُّوبِ

(٢٩)

تمهل 'ناظر' الصبيان في إبلاغ ذاك الشيخ
شيئاً ربما أفناه إن ذكر الحقيقة !
وبعد هُنيهةٍ وتَّحَنُّجٍ وتَرَدُّدٍ وجد الذي
أوحى إليه ببعض ألفاظٍ منمَّقةٍ رقيقةٍ
وقال وجدتُ طِفْلَكَ ذا مواهبٍ لست أعرفُ
كيف أسبرُ غورها إِذْ إنها حقاً عميقة !
وجوهرها - إِذا لم أخطئُ التشخيصَ - نزعتُ
إلى الحرِّيةِ العليا وأفكارٍ طليقةٍ

فطفلك لا يطيق الحبس في 'فصل' الدروس ولا
بمكتبة مغلقة فقد تُطفي بريقه !
وطفلك ذو إباء لا أرى معه الحياة مع الزعانف (*)
في المدائن غير أخطار مُحيقه
وكيف يعيش في حُجر كَأَجْجَارِ الأَرانبِ لا
يحقق غايةً أو ما يرى فيه طريقه ؟
أقول بأن معزة قد براه الله للحقل الطليق
مع الطبيعة مثل نحل في حديقته !

(٣٠)

أطال الناظر اللبِقُ الفطينُ بعرضِ
ما أنته كالإلهام نفسه

(*) الزعانف : أخلط الناس والمعنى الأول كل جماعة ليس لهم أصل واحد .

وقد تتقاطرُ الأفكارُ بل كُلُّ الذى
يحلو من الألفاظ جرسُهُ
إذا كان التأسى قد علا بالنفس
ثم حدته للإشفاق رأسُهُ
وكان يظنُّ أن الشيخ سوف يرى
الحقيقة إن تَخَلَّى عنه يأسُهُ
ولكنَّ العجوز مُطأطئٌ يُصغى
لما يمليه كالأقدار حسُهُ
ولم يجد الكلام فكان صمتٌ كالفناء
فهل أتاه اليوم رَمْسُهُ؟ (*)
ولم يجد الشجاعة كي يُعبرَ للفطين
عن الذى يحكيهِ هَجْسُهُ: (**)

(*) الرمس : القبر والمقصود الموت .

(**) الهجسُ : الصوت الخفى أو ما يدور فى النفس من أحاديث .

لقد شهدَ النهايةَ قبلَ موعدها
لقد غربتْ بهذا اليومِ شمسُهُ !

(٣١)

ومن نظراتِ صاحبنا وجِلسَتِه
رأى ذاك اللبيبُ ما اعتراه
وكان له من الحدسِ العميقِ
بصائرُ فيما يظنُّ وما يراه
رأى أن العجوزَ يخال موتاً موشكاً
بعد الذي أهوى فأبراه
وقال غداً العجوزُ أسيرَ يأسٍ
صارمٍ واليأسُ قد يغتال أسراًه
فحاول أن يُعيدَ إليه باليُمْنَى -

بصوتِ النصيح - ما أَخَذَتْهُ يُسْرَاهُ
وقال أراك يا شيخى عجوزاً والزمانُ
يسيرُ لا ندري بِمَسْرَاهُ !
فلا تتركْ أَصِيلَ المالِ يجرى دون
أَنْ تختارَ مَنْ يُحَسِّنُ مجراه
فَخَيْرُ الغابرينَ مَنْ انتقى ولدًا نجيبًا
كى يُخَلِّدَ بعده ذكراه !

(٣٢)

ولاحتْ بِسَمَّةٍ كَسَنَاءِ بَرْقٍ
فأشرقَ وجهُهُ بعدَ الغَمَامِ
كَأَنَّ الشَّيْخَ فى الأعماقِ يبكى
ومرتدياً قناعاً كابتسام !

ولكن كيف عادَ الفَرْحُ يخطو
وقد غَدَرَتْ به كل المرامي ؟
رأى فى قولِ ناظره حِجَاهُ*
وكيف يكونُ من سَقَطِ الكلام ؟
”ومن يدري لعل الخير فيه !
”فهذا شأنُ أجدادى العظام !“
ألم يرثِ الفَلاحَةُ من أبيه
ومن أجداده الغُرُّ الكرام ؟
ومن يدري لعل الطفل يسمو
فيرفع رأسه بين الأنام !
وعادتهُ ابتسامتهُ القديمةُ
وعاد له التفاؤلُ بالغلام !

(*) الحجا : العقل (والسُّرُّ أيضاً) .

وَهَبَ الشَّيْخُ مِنْ كُرْسِيِّهِ فَرِحًا
 وَصَافِحَ صَاحِبَ الرَّأْيِ السَّدِيدِ ضَاحِكًا
 وَقَالَ "غَدًا سَيَتَجَهَّزُ الْغُلَامُ إِلَى الْحَقُولِ
 "لِيَبْدَأَ شُغْلَهُ الْمُخْتَارَ رَبًّا مَالِكًا
 "وَدَاعًا لِلدِّرَاسَةِ وَالْمَتَاعِ وَالْمَحَابِسِ !
 "وَدَاعًا لِلظَّلَامِ يَسِيرُ فِيهِ حَالِكًا !
 "فَمَا سَدِكَتُ مَغَبَّةً (*) أَيْ حَبَسَ
 "كَحَبَسَ الدَّرْسَ قَيْدًا مُرَبِّكَ
 "لَدَيْنَا مِنْ أَقَارِبِنَا كَثِيرُونَ اشْتَكَوْا وَيَكُونُ
 "كَأَنَّ الدَّرْسَ حَقًّا كَانَ غَمًّا مِنْهَا
 "فَعَقَلَ الْطِفْلُ لَا يَسَعُ الْمَعَارِفَ كُلُّهَا

(*) سَدِكَتُ : لَزِمَ وَالْمَقْصُودُ ظَلَمَ وَدَامَ .

مَغَبَّةٌ : عَاقِبَةٌ .

”فإن حُشِرَتْ به قَسْرًا يكون الحَشْرُ سُمًّا فاتِكا !
”ومرَحى بالزهور وبالزروع وبالشجر !
”وبالجَنَّاتِ خَلْقًا ساميًا ومباركا
”ففيها يعبد الطفل الإله الحق فيما قد برى
”ويحيا العمر في جو الطبيعة ناسكا !“

(٣٤)

وأما حين عاد الركب من قلب المدينة
فقد عادت لرب البيت أطياف حزينه
تخلى عنه فرح اللحظة الأولى وعادت
إلى بال العجوز رؤى مُهينه
ترى ماذا يقول لأهل بيته ؟
وكيف يعيد للدار السكينه ؟
هل الدنيا سوى تَرَحٍّ وفَرَحٍ

بفرح اليوم أتراحُ رزينه !
تذكر أنه لابد أن يحكى
لأهل البيت أسباباً رصينه
لترك الطفل مدرسة الأمانى
فذاك يراه حقهم ودينه
ولكن اللسان يخونُ دوماً
ولم يعهد بحق أن يخونه
فأقسم أن يلوذ بصمت فيه
ويرجو الله حقاً أن يعينه

(٣٥)

تحير كل أهل الدار فى صمته
وساد البيت شىء كالوجل
ولكن الزمان زمان صيف

و وقتُ الصَّيفِ شَيْمَتُهُ الْمَلْلُ
وكلُّ الناسِ في ضَجَرٍ وضيقٍ
بَرَأَهُمْ شهرُ يوليُو حينَ حلَّ
فما اكترَثَ القريبُ لما جرى
وما اكترَثَ الغريبُ وما سألُ
ولكنَّ الصَّبِيَّ لَدِيهِ أُمُّ
رأت بالقلبِ حقاً ما حَصَلُ
وأدركتِ الحَصِيفَةُ أن سِرّاً
يُفسِّرُ صَمَتَ قلبٍ من انْمَحَلُ
وأن مصيبةً تَخْفَى عليها
تُفسِّرُ لونَ وَجْهِ قَد نَصَلُ
وأن الأمرَ مرْتَبِطٌ بمعزِهِ
فذاك يبررُ الحُزْنَ الأَجَلُ

ولم يكن الصبي يعي بأن الغم
 عند الأفق كاد عليه أن ينقضاً
 فكان يجالس الصبيان يحكى ما
 جنته يداه أو بخياله أمضى !
 وكان دم اليفوع يحرك الأوهام
 يدفعها فترفع ما يرى فى الرفع قرصاً
 وكان يرود أصقاع المحال يذرعهما
 يمد حدودها طولاً وعرضاً
 وكان رفاقه يستعذبون الكذب فى مدح الذى
 عشق الخيال وهل بغير المدح يرضى ؟
 ولاحت فى السما نذر الشرور السود إذ
 طلب الرفاق من الصغير الغر قرصاً !

وسَاءَ لَهُمْ وَكَيْفَ يَجِيءُ بِالْمَالِ الَّذِي يَرْجَوْنَهُ
وَهُمْو يَحْضُرُونَ الصَّبِيَّ عَلَيْهِ حَضًّا
فَقَالُوا إِنَّهُ مَلِكُ الْخِيَالِ وَكُلُّ مَا يَبْغِيهِ يُقْضَى
وَلَجَوْا فِي حَبَائِلِهِمْ فَلَمْ يَمْلِكْ هُنَا الْمُسْكِينُ رَفْضًا !

(٣٧)

وبَاتَ الْغَرُّ مَا اكْتَحَلَتْ بِهِ الْعَيْنَانِ غُمْضًا (*) !
فَكَيْفَ يَفِي بَعْدَ الصَّبْرِ فِي تِلْكَ الْعَشِيَّةِ ؟
وَلَمْ يَكْ قَدْ رَأَى نَبْعًا لِمَالٍ أَوْ رَأَى
لَوْنِ النُّقُودِ سِوَى بَرَاحَاتٍ سَخِيَّةٍ
وَقَالَ سَأَطْلُبُ الْمَالِ الَّذِي طَلَبُوهُ مِنِّي
مَنْ أَبِي فَلَعَلَّهُ يُرْضِي الشَّهِيَّةَ !

(*) مَا اكْتَحَلَتْ غُمْضًا : أَيْ لَمْ تَنْمِ .

وحين تنفّس الصبحُ انثنى يُفْضى
بِسِرِّ الصَّحْبِ لا يدرى بِأَفَاقِ الْبَلِيَّةِ !
وهبَّ أبوه إذ صكَّتهُ أصداءُ الرِّزْيَةِ !
«أكان الخَبُّ (*) حَقًّا أمْ غَدَا شَرُّ الْبَرِيَّةِ؟»
وقالت أمه ذاتُ الأحابيلِ الْخَفِيَّةُ :
تُراكَ تُريدُ أَنْ تَشْرِيْ لَنَا خَيْرَ هَدِيَّةٍ ؟
فقلْ لى ما تريدُ وسوفُ أُحْضِرُهُ ! وفَوْراً !
ولو كانت موارِدُ مالِنَا جِدَّ قَصِيَّةٍ !
وساد الصمتُ إذ حارَ الغلامُ لُحِيظَةً
ثم ابتدتْ ضَحِكَاتُهُ الْعُلْيَا الْجَلِيَّةُ !

(*) الْخَبُّ وَالْخَبُّ : الْغِشَّاشُ الْمَخَادِعُ .

وهزت قهقهات الغرّ أرجاء المكان !
كأن زلازل الأرضين هبّت !
تعجّب والده وظنّ كلُّ أن سرّاً
دعا الجان الخبيّ بها فللبّت
وقالا إن ذاك الطفل مسكونٌ بروحٍ
دعاها للديبّ هنا فدبّت
على الجمر الخفيّ تصبُّ زيتاً
وفوق النفس لوثنتها فصبّت
تعبُّ من الرياح الهوج كالإعصارِ ناراً
ونفسُ الطفل منها الآن عبّت
تشبُّ على السّياح تريدُ كالغازي طعاناً
وفوق العقْل في مأواه شبت

إذا كانت تَذِبُ عن الأَنَامِ خَبَالٌ* جانٍ
فكيف عن الخَبَالِ الآنَ ذَبَّتْ ؟
نراها قد بَغَتْ فَطَغَتْ على عقل الغلام !
وللخَبَلِ العظيم به أُحِبَّتْ !

(٣٩)

وقال الوالد المذهول كارثة أَلَمَّتْ
فطفلى جاء ذا عقلٍ خديجٍ! (**)
وكننت نسجت آمالى على نُؤْلِ الزمان
فأَبْدَلْنِي الصغير بها لِمَاعاً (***) من نسيجٍ

(*) تَذِبُ عن : تدفع وتمنع عن .

الخبال : فساد العقل أو الهلاك .

(**) خديج : ناقص الخلق .

(***) لِمَاعاً : مِرْقَأً (أى قطعاً ممزقة)

وكنْتُ غَرَسْتُ فِيهِ بَعْضَ نَبْتٍ
فَإِذَا بِغَصُونِهِ شَرُّ الْوَشْيِجِ (*)
وكنْتُ أَظَنُّهُ خَيْرَ الْعِمَادِ لَوَاهِنِ
فَإِذَا بِهِ شَرُّ الْوَلِيْجِ (**)
فَفِي الْأَعْمَاقِ أَمْشَاجٌ وَخَلَطٌ
لَهُ فِي الْعَقْلِ أَخْلَاطُ الضَّجِيجِ
وَمَا فِي الضَّحْكِ عِنْدَ الطِّفْلِ فَرْحٌ
وَلَكِنْ بَعْضُ شَيْطَانٍ يَهْيِجُ
وكنْتُ أَظَنُّهُ الصَّافِي الْمُسَفِّى
فَإِذَا فِي نَفْسِهِ أَمْرٌ مَرِيْجٌ (***)

(*) الوشيح : النبات الملتف المشتبك والمقصود المختلط .

(**) الوليج والوليجة : بطانة الرجل وخاصته ويدخلته .

(***) مريج : قلق مضطرب .

وكنْتُ أظنُّه لحنًا خفيضًا

فإِذْ فِي النِّفْسِ أَشْتَاتِ الْعَجِيجِ !(*)

(٤٠)

وَقَالَتْ أُمُّهُ أَخْطَأْتُ فِي فَهْمِ الْغُلَامِ !

وَمَا أَدْرَى لِمَا قَدْ قُلْتُ شَرِّحًا !

فَلَيْسَ بِطِفْلِنَا مَسٌّ مِنَ الشَّيْطَانِ أَوْ

عَفْرِيْتُ شَرٌّ شَاطِحٌ فِي الْعَقْلِ شَطْحًا

وَكُنْتُ أَظُنُّ أَنْ فِي عَقْلِ الْغُلَامِ الْيَوْمَ

جَنِيًّا بِهِ قَدْ يَطْفَحُ الْإِيمَانُ طَفْحًا

يُقَهِّقُهُ ضَاحِكًا مِنْ جَهْلِ أَهْلِ مَنْ اصْطَفَاهُ

وَلَا يَبْغُونَ إِلَّا الْهَمَّ تَعْرِيةً وَفَضْحًا

(*) العجيج : الأصوات .

ولكنّي انتهيت إلى الدليل بأن فيه
مَلَكًا مُوحِيًا بِفَعَالِهِ لَيْلًا وَصُبْحًا
فَفَسَّرَ مَا تَرَاهُ الْيَوْمَ مِنْ أَفْعَالِهِ
وكذا من الأقوالِ تصرّيحاً ولَمَحاً
بأن غلامنا فيه من البركاتِ ما يهدى الحيارى
وفيه أقام من بضميره أضحى فأوحى !
ألم تعلم بأن الله يرسلُ من ملائِكِهِ خياراً
ليطرحَ حُزْنَ من يختارُ طَرَحاً ؟

النشيد الثالث

أطلت عليكمو شرّح البداية
ولم أعجل بتقديم النهاية
ولكنى اقتصرت هنا بسردي
على ما لى به حقاً درايه
وكنت شهدت منشأ كل قول
وأدركت التفاوت فى الرواية
فقد كثر الكلام بشأن معزّه
وأسرف فيه عشاق السّعاية(*)
فقال البعض مجذوبٌ ولّى
وأفتى البعض فى سبب الولاية
وقال الكل نستبقيه نُخرّاً

(*) السّعاية : الوشاية والنميمة .

ونضرب حوله طوقَ الحماية
ولم يأبه أبوه لأى قول
أتى أذنيه من باب الوشاية
فطفلُ الأمس قد أضحى غلاماً
وأصبح حسنة الغلاب أیه

(٤٢)

وهاكم قد أتى وقتُ البلوغ
وأصبح طفلنا ولداً وسيماً
غلاماً يافعاً يزهو بحسن
كمن عرف الرفاهة والنعيما
وقد كانت سنونُ الدرس عبئاً
وحبساً بل وقلهما مقيماً

وها قد عاد للدُّنيا طليقاً
وكان أبوه ذا عطفٍ رحيماً
ولم يَنخُلْ صَبِيُّ اليوم يوماً
وكان كشأنه دوماً كريماً
فإن لَقِيَ الصَّحَابَ سَخَى عليهم
وإن وجدوا اللسانَ به سقيماً
يُهْذِرُ (*) دون إيضاح لمعنى
كأن بنفسه لباً عقيماً
فكان يُفْضِلُ المَسْرَى وحيداً
وكان لنفسه أبداً كليماً !

(٤٣)

وقال الناسُ عقلُ اليافعِ المجنوبِ

(*) يَهْذِرُ : يُسْرِعُ وَيُخَلِّطُ فِي الْكَلَامِ .

عند الربِّ يقرأ حِكْمَةَ الملكوتِ
فإن سمعوه يهذى فسروا أقواله
تفسيرَ غرٍّ ساذجٍ مبهوتٍ (*)
وفتح كلِّ أهلِ القريةِ الصغرى
له الأبوابُ بين متاجرٍ وبيوتٍ
فصار يطوفُ كالأنسامِ ما بينَ
الورى والكُلِّ ذلَّلَ صوتهُ بخفوتِ
وما حرموه شيئاً مدَّ عيناً أو يداً
ليناله بل كان كالمائوتِ (**)
بلى ! وتسابق الأهلون يدعونَ
الصبى لتحصلَ البركاتُ من مبخوتِ
وقدَّمَ كلُّ فردٍ ما يطيقُ إليه

(*) المبهوت : من فوجئ فدهش وحار أو من أخذ بغتة .

(**) المائوت : الذى يقدرونه حق قدره (هنا) .

حتى عاد آخر يومه بالقوت
وحار البعض في أمر الذي يلقاه
غرُّ لا يزيدُ اليومَ عن سُبُروتِ ! (*)

(٤٤)

وها أنذا أعودُ لسابقِ الإيقاعِ حُرّاً
وأتركُ لحنه كالماءِ يجرى
فتختلفُ السطورُ لدى مدّاً ثم قصراً
موافقةً لنبضِ الشَّعرِ في قلبي وفكري
ولستُ أقولُ إن رتابةَ الإيقاعِ قيدُ
ولكنُ في التنوُّعِ بعضُ سِحْرِ !
وقد تأتي القوافي طائعاتٍ رائعاتٍ
يفيضُ جمالُها في كل سطرٍ

(*) السُّبُروت : (هنا) الغلامُ الأمرد ، وتعني أيضاً الفقير .

فإن تستعص قافيةً على المسكين صَوْغًا
فسوف يجيئ يسرُّ بعد عُسْرٍ
مناطُ القولِ أن تدعَ القوافي
تتأبَعُ في القريحة دون قَسْرٍ
فلم ألزم سوى حُسْنِ النوايا
حديث الصَّدقِ في سرِّي وجهري
وها أنذا أعودُ لأمرٍ «مِعْزَه»
لأروى عنه ما يرويه دَهْرِي !

(٤٥)

تركنا الغرَّ وهو يهيمُ كالأنسامِ صُبْحًا
ويشعر أن صوتًا ما يلحُّ عليه وخَزَا
وقد يحكى لبعض القوم ما يحكيه هذا الصوتُ
من إكرام ربِّ العرشِ مَغْفِرَةً وفوزًا

وكان يقول إن لديه إحساساً
بسرّ في خبايا الأرض بل يمتاز مِرّاً
فأما أن يكون خياله أوحى إليه
وإما أن يكون حقيقة وتريد نشرًا (*)
وصدقه القليل وقال بعض الناس
إن الغرّ يطلب أن يبرز (**) القوم بزّاً
ولم يسلم من التّبزّ المريب ومن
كلام الناس همّاً !
ولكنّ الفتى المسكين كان يطبع صوتاً
خفيض الهمس يحفر قلبه الدفاق حفزاً
وما يدرى بأن الصوت يهديه لشيء
خبئ يختفى في الأرض كنزاً

(*) النشز : الرفع والإعلاء .

(**) يبرز : يغلب ويتفوق .

وكان الوالد المهموم لا يدرى أيفرح أم
 يغالب هاجساً يزداد بأساً
 يقول بأنَّ طفلاً الأُمس أصبحَ يافعاً
 والعقل في ظلّماته يزداد طمّساً
 فما نفع الذى بذل الكثير لغرسه فى نفسه
 بل ساء إنباتاً وغرساً
 وما نفع الزمان بعالمٍ أو زارعٍ أبداً
 ولو كان ابنه قد طاس طوساً (*)
 وما أغناه شىءٌ فى حياةٍ عاشها
 إذا كان الفتى قد ضاع ألساً (**)
 أحسَّ بأنَّ دفناً قد تسرب من لياليه

(*) طاس طوساً : أصبح ذا جمال فائق .

(**) يأس السأ : اختلط عقله ، فالأس الخبل .

وَحَلَّفَ فِي دِمَاهِ الْيَوْمِ قَرْسًا(*)
وِغَامَتْ عَيْنُهُ تَعْسًا وَأَصْبَحَ رَاعِسًا(**)
وَلِسَانُهُ يَزْدَادُ خَرْسًا
عَلَى الْأَيَّامِ مَاتَتْ فِيهِ رَغْبَةُ كُلِّ حَيٍّ
ثُمَّ وَلَّى عَنْهُ مَا قَدْ كَانَ بَهْسًا(***)

(٤٧)

وَفِي جَوْفِ الشِّتَاءِ أَحَسَّ أَنْ الْجِسْمَ
أَصْبَحَ بَعْضُ إِنْسَانٍ يَعِيشُ وَلَا يَعِيشُ
تَمْنَى الْمَوْتَ حَتَّى يُذْهَبَ الْأَحْزَانُ عَنْهُ
وَيُوقَفَ فِي الْعُرُوقِ دَمًا يَجِيشُ
وَكَانَ بِظُلْمَةِ الْعَيْنَيْنِ لَا يَدْرِي سَوَى

(*) قَرْسٌ : الْقَرْسُ وَالْقَرْسُ الْبَرْدُ الشَّدِيدُ .

(**) رَاعِسٌ : يَرْتَعِشُ وَيَتَنَفَّضُ .

(***) الْبَهْسُ : الْجُرْأَةُ وَالشَّجَاعَةُ .

ما يبلغُ الأذانَ من مثلِ الكَشِيشِ (*)
غداً مثلُ المريبِ بكلِّ شَيْءٍ
وما فى قلبه أَمَلٌ يَريشُ (**)
ولم يكُ عنده مَشَشُ (***) العيونِ ورِيشَةُ الأيديِ
سوى نُذُرٍ تحذُرُ من نَشِيشِ (****)
فكان على الدوامِ يكافحُ الإعياءَ والإجهادَ
مُنْطَوِيًّا كَأَنَّ بَصْدْرَهُ رِيشِيشُ (!*****)
ومَرَّ بِهِ شِتاؤُ العامِ فى حَلَكِ الظلامِ
ولذِعةِ البردِ القَرِيشِ (!*****)

(*) الكَشِيشُ : الصوتُ الهادرُ الخفيضُ المنذرُ مثلُ صوتِ غليانِ الماءِ أو صوتِ احتكاكِ
جلدِ الأفعى أو هدرِ الجملِ .
(**) يَريشُ : ينبتُ فيه الريشُ أى ينضجُ .
(***) المَشَشُ : بياضُ يعتري العينَ .
(****) النَشِيشُ : أزيزُ الغليانِ والمقصودُ الفورانُ .
(*****) الرِيشِيشُ : الجبانُ الذى يَرْتَعِشُ فرَقاً ، مثلُ الرعديدِ الذى يرتعدُ رُعباً .
(*****) القَرِيشُ : الشديدُ .

لقد طاشت سهامُ العمرِ حتى لم يعدْ
في جعبةِ المسكينِ سهمٌ لا يطيشُ !

(٤٨)

وكان الشابُّ في خلواتِه ينتابه عجبٌ
لما قد أبدعَ الخالقُ في الكونِ
ويجذبُه الخيرُ إلى النواعيرِ التي تجري
لصوتِ أنينها أصداءُ جنٍّ
وتفتنه الطيورُ إذا تتأجّت عند نبعِ النورِ
راقصةً على لحنٍ مرِنٍ
وطارت بين أشجارِ الصباحِ ترومُ دِفئًا بين
غُصنِ مُشمسٍ وظليلِ غُصنِ
وكان الوقْعُ ذا سحرٍ غريبٍ إذ رأى

إِعْجَازَ خَالِقِهَا وَسِرَّ الْخَلْقِ فِي اللَّحْنِ
وَأَصْبَحَ عَاشِقًا لِلشَّطِّ عِنْدَ النَّهْرِ يَأْتِيهِ
لِيَسْمَعَ سَاحِرَ الصَّوْتِ الْمِغْنِ
يُسَرِّحُ طَرْفَهُ فِي الْمَاءِ طَوْرًا أَوْ يَحَاوِلُ أَنْ
يَرَى فِي الْمَوْجِ مَا يَخْفَى عَنِ الْعَيْنِ
تُرَى مَاذَا يُحَرِّكُ هَذِهِ الْأَمْوَاجُ رَفْعًا أَوْ
فَخْفُضًا فَوْقَ شَاطِئِهَا الْأَغْنِ ؟

(٤٩)

وَهَلْ فِي الْكَوْنِ مِنْ سِرٍّ خَفِيَ يَمْنَحُ الْأَحْيَاءَ
طَاقَتَهُمْ وَيَجْرِي فِي دَمِ الْأَحْيَاءِ ؟
وَكَيْفَ تَصَاعَدُ الْأَنْفَاسُ حَرَّى فِي الصَّبَاحِ لَكِي
تُرَدُّ إِلَى خُفُوتٍ فِي الْمَسَاءِ ؟
وَمَا سِرُّ التَّجَاذِبِ بَيْنَ أَشْكَالٍ وَالْوَانِ

تناديه فيُصْغى لِلدَّاءِ ؟
لماذا يَظْهَرُ الكونُ الجميلُ كأنَّ في ذاك الجمالِ
الروحَ أو سرَّ البقاءِ ؟
لماذا كانت الأزهارُ صفراءَ الخدودِ فهل
يجى اللون من سَقَمِ الهواءِ ؟
وكيف إذن بجارتها بدتُ للعينِ حمراءَ
فهل صُبِغَتْ بالألوانِ بماءِ ؟
لماذا تَبْرُقُ الألوانُ في الأضواءِ ساطعةً
كأن اللونَ من مَنَحِ الضياءِ ؟
وما شأنُ السماءِ بكل ما يجرى بظهر الأرضِ
هل للأرضِ شأنٌ بالسماءِ ؟

(٥٠)

ولم يدر الغريرُ بأنَّ تلك تساؤلاتٌ قد

يراها الناس ضَرْبًا من جنونٍ
خصوصاً عندما أَقْضَى بها للصَّحْبِ مِمَّنْ
كان مأْرِبُهُمْ بِهِ بعضَ المجونِ ! (*)
وليتَ كلامُهُ كانَ المُنْمَقَ والمُزَانَ بكلِّ ما
يرجونَ أو ما يَعْرِفُونُ
ولكنَّ الفتى كانَ الصريحَ فلم يُحاولْ أنْ
يُراوِغَ ما أتاهُ من الفتونِ
وكانَ يبيئُهُم ما انتابَهُ من فيضِ أفكارٍ
أَتَتْهُ بها السهولُ أو الحُزُونُ
فإنَّ عَرَضَتْ لأسرارِ الوجودِ بدا عليهمُ
كل ما نَحْشَاهُ من سوءِ الظنونِ
فكيفَ تَساءَلَ المأْفُونُ عن سِرِّ الوجودِ

(*) المجونُ : خَلَطَ الجِدَّ بالهَزَلِ .

وحكمة الخلاق في أمر القرون ؟
فذلك من أمور الغيب لا يدري بها بشرٌ
وسبحان الذي أفنى القرون !

(٥١)

وكان الشأن في الماضي هو التصديق للأقوال
مهما اشتطَّ صاحبها وغالَى
وكانوا يستعيدون الخيالات الغريبة - بعضهم
عشقاً لها - والبعض للتصديق مالا !
وكان «لمعة» القصاص نهج في الحديث يُقربُ الأنبياءَ
حين يُقصُّها حتى المحال !
وهم لخياله مستعذبون فلا يكذبُ أيهم شيئاً
فيزعم أنه يروى خبألاً !
ولكنَّ الطفولة كانت الوقت الذي يحلو به

سردُ الحكاياتِ التي تروى الخيالاً !
يُصدّقُ كُلُّ طفلٍ أنَّ ما يحكى الخيالُ حقيقةً
والقيظُ فى البیداءِ يكسبه ظلالاً
وكُلُّ خيالٍ إنسانٍ يحثُّ فراره من
وطأةِ الدنيا ليشهدَ كُلُّ ما يبغى جمالاً !
ولكن الغريرَ اليوم يحكى - فى مقابلِ مدحه
ولقاءَ ما تسخو يداه به - ضللاً !

(٥٢)

تفرّقَ عنه كلُّ صحابهٍ وذروه إلا
واحداً يلقاه من خلصائه
وكان لصاحبِ الإخلاصِ فنٌّ خارقٌ
عند استقاءِ العذبِ من أنبائه
وأما حيرةُ المسكينِ فى أمرِ الوجودِ فمن

صَدَى النَّزَوَاتِ مِنْ أَهْوَاءِهِ
وَبَعْضُ النَّاسِ قَدْ يَتَنَدَّرُونَ بِمَا يَقُولُ
وَيَدْعَى فِي صُبْحِهِ وَمَسَائِهِ
'فَمَعَزَتْنَا' يَثِيرُ الْعَطْفَ عِنْدَ الْكُلِّ لَا
يَشْكُو الْوَرَى أَبَدًا سِوَى غُلَوَائِهِ
وَصَاحِبُهُ يُصَدِّقُهُ يَرِافِقُهُ بِكُلِّ هَوًى
يَهِيمُ الْقَلْبُ فِي أَرْجَائِهِ
إِلَى أَنْ جَاءَ يَوْمٌ سَارَ فِيهِ مُحَمَّلًا يَزْهَوُ
بِأَفْضَلِ زَادِهِ وَبِمَائِهِ
فَإِذْ بِالشَّابِّ فِي وَسْطِ الْقُبُورِ يَخَاطِبُ الْأَمْوَاتَ
وَالْأَحْجَارَ مِنْ 'أَحْيَائِهِ' !

(٥٣)

وَكَانَ الشَّابُّ يَعِشُقُ كُلَّ مَا

يحكيه للأصحاب في ليل السَّمرِ

ومنذ تفرقوا مال الفتى للسير

في الصحراء في ضوء القمرِ

فإن السير كان يُجددُ الخطراتِ

يجلو كلُّ ما كان انطمرَ (*)

فإذ بزمانه يحلوا بالأفكارِ

تغمره كسيلٍ انهمرَ

فحين يرى السحاب وقد تقاطر (**)

في الأعالي أو بعجبٍ قد شمّر (***)

يظن مسيره خطو الحياة وقد

تباطأ ما أطاع لمن أمر !

(*) انطمرَ : استتر واستخفى .

(**) تقاطر : تتابع .

(***) شمّر : مشى مُختالاً .

وَإِذْ بَضِيَاءِ بَدْرِ اللَّيْلِ يُحْجَبُ
أَوْ تَوَارِيهِ السَّحَابِ كَالْخَمْرِ (*)
وَإِذْ بِالنُّورِ يَفْتَرِشُ السَّمَاءَ
بِرْغَمِ بَدْرِ لَا يَبِينُ وَقَدْ ضَمَرَ !

(٥٤)

وْغَاصَ اللَّيْلُ فِي نَفْسِ الْفَتَى وَسَرَى
كَفَعَلِ السَّحْرِ أَوْ مِثْلِ الْخَدَرِ
فَتَلَكَ مَغَانِمُ اللَّيْلِ الْوَضِيئِ إِذَا
تَجَلَّى الْبَدْرُ لَيْلًا وَأُنْحَدَرَ
وَتَلَكَ مَكَاسِبُ الْفِكْرِ الطَّلِيقِ وَإِنْ
بِأَوْهَامِ الْخِيَالِ هُنَا سَدَرُ
وَذَاكَ حَيَاءُ نَفْسٍ زَانِهَا

(*) الْخَمْرُ : الشَّجَرُ الْمَلْتَفُ أَوْ كُلُّ شَيْءٍ يَحْجُبُ أَيُّ شَيْءٍ.

نورُ الإله بلا ظلامٍ أو كدرٍ !
وذاك جمالُ إحساسِ الخلودِ إذا
انتنى حراً وعن حبٍّ صدرُ
وذاك صفاءُ صدقِ القلبِ لا
تلقاهُ عندَ الناسِ إلا ما ندرُ
وذاك وفاءُ لبِّ الروحِ ما خانتُ
عهودَ الدهرِ حتى إنْ غدرُ
وذاك هو الذي يبغيه في مسراهُ
إن صمتَ اللسانُ وإن هدرُ !

(٥٥)

وكان صديقُهُ يمشى بجَانِبِهِ
ويعجبُ من صفاءِ اللَّيْلِ في الصحراءِ
بدتْ سُوداً ظلالُ الأفقِ والتمعتْ

نجومُ الليلِ في الخُضراءِ
وأنسامُ الربيعِ بدتْ حيارى في
مدى ما انداح من غُبراءِ
ورنَّ الصمتُ في دمه عميقَ الوقعِ
في مسرى رؤى صحرائه القمراءِ
ولم يعتدْ صديقُ الصَّفوفِ قِصمَ عرى
حديثِ القلبِ في السَّراءِ والضَّراءِ
وعنَّ له سؤالُ صديقه عما
يشدُّ عيونه للربوة الحدرَاءِ
ولكنَّ الصديقَ هنا توقف عند
حافةِ وهدةِ رمليةٍ حمراءِ
على غيرِ انتظارٍ صاحَ مثلَ مسافرٍ
لدَغَتُهُ سنُّ الحيةِ الرِّقْطاءِ

وَأَهْوَى فَوْقَهَا وَأَشَارَ لِلخَلِّ الْوَفَى
وَقَالَ إِنَّ الْأَرْضَ فِيهَا مُبْتَغَاهُ
وَلَمْ يَلْبِثْ أَنْ افْتَرَشَ الْكُثِيبَ
وَمَرَّ بِالْأَنْفِ الرَهِيفِ عَلَى نَدَاهُ
وَأَدْرَكَ خَلُّهُ أَنْ الصَّدِيقَ يَرُومُ
حَفَرَ الْأَرْضَ لَكِنْ يَا تُرَى مَاذَا دَهَاهُ ؟
تُرَى مَا كَانَ مَقْصَدُهُ وَمَاذَا قَدْ رَأَى
فِي الْأَرْضِ مَخْبُوءًا وَهَلْ تَكْفَى يَدَاهُ ؟
وَلَكِنْ كَانَ مَعْرَةً قَدْ تَوَلَّى الْحَفَرَ جَادًّا
فِي حِمَاسٍ لَيْسَ يَبْدُو مُنْتَهَاهُ !
وَقَالَ مُغْمِغًا لَصَدِيقِهِ كَنْزُ الْكُنُوزِ
بِبَاطِنِ الْكُتُبَانِ لَا يَدْرِي مَدَاهُ !

”وَصَدَّقْنِي فِهَذَا مَا رَأَيْتُ بِخَاطِرِي
يَسْمُو بِنَا وَيَفُوقُ سَائِرَ مَا عَدَاهُ !“
تُرَى مَاذَا هَدَاهُ إِلَى الْمَكَانِ - تَعْجَبُ الْمَسْكِينُ
مَذْهُولًا - تُرَى مَاذَا هَدَاهُ ؟

(٥٧)

أَطَاعَ الْخَلُّ أَمْرَ صَدِيقِهِ فَأَكْبَّ يَحْفَرُ
فِي الرَّمَالِ بَدُونِ أَنْ يَدْرِيَ السَّبَبُ
وَلَمْ تَمْضِ السَّوِيعَةُ مِنْ هَزِيعِ اللَّيْلِ حَتَّى
كَانَ فِي جَوْفَيْهِمَا وَقْدُ اللَّهَبِ
وَكَانَ الْخَلُّ يَمْضِي مُسْرِعًا كَالْمُهْرِ يَرْكُضُ
فِي سَبَاقِ دُونَ رَيْثٍ أَوْ تَعَبٍ
وَكَانَ يُحْسِنُ أَنْ السَّاعِدِ الْمَفْتُولِ قَدْ

جمعَ الرمالَ بمثلِ تَلٍّ قد كَثَبُ
وبالعَرَقِ الغزيرِ على الجَبِينِ ورَعَمَ
بردِ الليلِ حاراً فائِراً فيه تَصَبَّبُ
ولم يَلَحِ الذي يرجوه أَىُّ منهما حتى
وإن لم يعرفا كُنْهَ الطَّلَبِ
وإذ بالفَجَرِ يظهر فوق رأسِ التَّلِّ
يكسوه الضبابُ كَوَجْهٍ جَنَّى شَحَبُ
ولكنَّ الصديقين استمرَّا يضربانِ الأرضَ
والصبحُ الجميلُ قد اقْتَرَبَ !

(٥٨)

وناما حيث كانا والنعاسُ يطيعُ
إرهاقَ الجسومِ ويذهبُ اللَّغَبُ (*) الشديداً

(*) اللَّغَبُ : التعب .

وعند سُطُوعِ شمسِ اليومِ جَاءَ بالطَّعامِ
وبالفُؤُوسِ اسْتَأْنَفَا حَفَرَ المَزِيدُ
وكانَ اليومُ يجرى لاهِثًا والشَّمْسُ في
أُفُقِ الغُرُوبِ على ذُرَا التَّلِّ البَعِيدِ
ولكنَّ النشيطين استمرَّ في مكانهما
كملتصقٍ بِمِرْعَاهُ الجَهِيدِ
وظلَّ يعملانِ بكلِّ جِدٍّ والعيونُ
عن الحَفَائِرِ لا تحيدُ ولا تميدُ
وحين أتى المساءُ اسْتَسَلَمَا للنومِ قَدْ
أَضَنَّتَهُمَا أَوْهَامُ حُلُمِهِمَا الشَّرِيدِ
ومن عُمُقِ النُّعاسِ أَفاقَ مِعْزَةٌ صارخًا
إِذْ مَسَّ أَصْبَعُهُ حِلَاقًا من حَدِيدٍ !
فأَيَقِظُ خَلَّهُ حَتَّى يَشُدَّ الحَلَقَةَ الكَبْرَى
وينفَتِحَ الغِطاءُ عن النُّصِيدِ !

وبعد الجهدِ كان الصّاحبانِ قد استطاعا
 رَفَعَ ما يُفَضَّى إلى جُبٍّ عميقٍ
 وخافًا اللَّيْلَ والإِظْلَامَ في جَوْ المكانِ
 وحُلْكَةَ المَهْوَى بِكَهْفَيْهِمَا السَّحِيقِ
 وأَجْفَلَتِ الأيَادِي ثم رَانَ الصَّمْتُ -
 حَارًّا في الذی يُخْفِيهِ من خَطَرٍ مُحِيقٍ
 وقرر معزّة المنهوك تأجيلَ النُّزولِ إلى
 شُرُوقِ الشمسِ في غَدِهِ الشَّقِيقِ
 ولكنّ الصديقَ أرادَ إِتِمَامَ المِهْمَةِ
 في الظلامِ بِمَنْطِقٍ غَثٍّ صَفِيقٍ
 وقال بآئنه لن يَعْرِفَ النومَ الهَنِيَّ
 فكيف يصبرُ طولَ لَيْلٍ أو يُطِيقُ ؟

فَأَغْلَقَ مِعْزَةَ السَّرْدَابِ فِي عُنْفٍ
وَقَالَ بَأْنَهُ هُوَ صَاحِبُ الرَّأْيِ الْعَتِيقِ
وَحِينَ أَتَى النَّهَارَ بِضَوْئِهِ نَزَلَا
فَشَتَّتَ مَنَظَرَ الْقَاعَاتِ أَمَالَ الصَّدِيقِ !

(٦٠)

عَلَى الْجَنَّبَيْنِ أَلْفَى الصَّاحِبَانِ مِنَ الدُّمَى
مَا قَامَ كَالْأَصْنَامِ وَالْأَوْثَانِ
وَفِي ضَوْءِ النَّهَارِ رَأَى الصَّدِيقُ بِأَنْهَا
مِنْ مَرْمَرٍ يَزْهَوُ (*) بِلَوْنِ جُمَانٍ
وَرَاعَتْهُ اللَّالِيُ فِي الْعَيُونِ كَمَثَلِ
حَبِّ النَّبْقِ أَوْ حَبِّ لِرْمَانٍ
كَأَنَّ الْوَاقِفِينَ أَتَوْا مِنَ الْفِرْدَوْسِ

(*) بِلَوْنِ جُمَانٍ : بِلَوْنِ اللَّوْلُو أَوْ الْفِضَّةِ .

مُنْحَطِّينَ مِنْ إِثْمٍ وَمِنْ عِصْيَانٍ !
فَهَلْ كَانُوا مِنَ الْبَشَرِ الَّذِينَ أَصَابَهُمْ
غَضَبُ بَوَسُوسَةٍ مِنَ الشَّيْطَانِ ؟
وَهَلْ كَانُوا مُسُوخًا مِنْ أَهَالِي
الْقَرْيَةِ الصُّغْرَى بِمَجْهُولٍ مِنَ الْأَزْمَانِ ؟
وَإِنْ كَانُوا كَذَلِكَ كَيْفَ جَاعُوا ؟
وَمَا حَبَسَ الْمُسُوخَ بِمَظْلَمِ الْأَرْكَانِ ؟
وَهَلْ كَانُوا مِنَ الْأَصْنَامِ يَعْبُدُهَا
قُدَامَى النَّاسِ فِي زَمَنِ مِنَ الْكُفْرَانِ ؟

(٦١)

وَأَوْقَدَ مَعْرَةَ الْحِيرَانِ شُعْلَتَهُ
لَكَيْ تَهْدِيهِ فِي فَكِّ الطَّلَاسِمِ

فَأَلْفَى فَوْقَ جُدْرَانِ السَّرَادِيبِ
الْمُزَخْرَفَةِ الرُّسُومِ أَوْ التَّمَائِمِ
وَلَمْ يَفْهَمْ لَهَا مَعْنًى فَقَالَ لِنَفْسِهِ
تِلْكَ السَّبِيلُ إِلَى الْمَغَانِمِ
وَلَنْ نَسْتَطِيعَ أَنْ نَجِدَ الْكُنُوزَ
بَغَيْرِ فَهْمٍ لِلرُّمُوزِ وَكُلِّ غَائِمٍ
أَرَى فَوْقَ الْجِدَارِ هُنَا تَصَاوِيرًا
لَطِيرٍ فِي ذُرَا الْأَجْوَاءِ هَائِمٍ
وَحَيَاتٍ وَأَيْدٍ ضَارِعَاتٍ
فَاتِحَاتِ الْكَفِّ تَسْتَجِدِي الْمَرَّاحِمَ
فَهَلْ طَلَبَ الْمُسُوخُ الرَّحْمَةَ الْعُلْيَا
وَقَدْ أَوْدَتْ بِهِمْ سُوءُ الْمَرَّاحِمِ؟ (*)

(*) المراجع : سوء الأقوال وقبحها .

وكيف نُفسرُ الرِّسْمَ الذي فيه
الأشعةُ حاملاتٌ للحمائم ؟

(٦٢)

تَقْدَمُ بالضياءِ إلى الصديقِ وكانَ
مشغولاً بفحصِ جوانبِ 'الشيءِ' الثمينِ !
وكانَ 'الشيءُ' صندوقاً كبيراً ذا
غطاءٍ فوقَهُ قُفْلٌ شديدٌ لا يَلِينُ
فَقَرَّبَ معزّةَ الأضواءِ حتى
يعرفَ المفتاحَ للصَّيْدِ الْمُخْبِئِ والسَّمِينِ
وقالَ صديقُهُ هذا الذي يبدو
لنا المِغْلَاقَ للسرِّ المَعْمَى والمَكِينِ
تجاوزَ كلَّ طاقاتي وليس له سوى

سحرٍ بِإِلْهَامٍ مِنَ الْوَحْيِ الْمُبِينِ
وَتَمْتَمُ مَعِزَّةُ الْحِيرَانِ "لَنْ يَأْتِيَ
"لَنَجِدْتَنَا سِوَى الْحَقِّ الْمُرْجَى وَالْمُعِينِ
"لِنَدْعُ اللَّهَ سِرًّا أَوْ جَهَارًا أَنْ يُثَبِّتَ
مَغْنَمًا ثَرًّا فَأَنْتَ بِهِ قَمِينٌ !" (*)
تَوَجَّهْ كُلُّ قَلْبٍ بِالْدَعَاءِ وَإِذْ بَابُ 'الشَّيْءِ'
مُنْفَتِحٌ عَنِ السَّرِّ الدَّفِينِ !

(٦٣)

وَكَانَ 'الشَّيْءُ' (مَا أُسْمِيَتْهُ الصَّنَدُوقُ) تَابُوتًا
لَمِيتٍ مُرْعَبٍ بِشَعْرِ رَهِيْبٍ
وَحَوْلَ الْجِسْمِ أَرْبَطَةٌ مُضَفَّرَةٌ

(*) قَمِينٌ : جَدِيرٌ .

كجذع النخلة المتداخل الفذ العجيب
وقال صديقهُ إن الذي وجداه مقبرة
وهذا كله غثٌ كثيبٌ
وحانت نظرة من عين معزة
للأواني واقفات في تناسقها الرتيب
فقال لنفحص القدر التي في
جانب التابوت إن لدى حدساً لا يخيب
لعل بها جماع الخير يأتينا بما نرجوه
يُفرحنا به عما قريب
لعل به الجواهر من زبرجد أو من الياقوت
أو ذهب يكون لنا فيه نصيب
وقال الله صاحب كل فضل قد هداني
للصواب وقد قصدت إلى الكثيب

ولم يلبث غطاءُ القدرِ أن كُشِفَ الذي
يبدو جواهرَ باهراتِ
جواهرِ فاقعاتِ اللونِ تزهرُ بالنضارِ
وبالآلىِ الساحراتِ
إذنْ هذا الذي تَبْغِيهِ من هذا العَناءِ
على البطونِ الطاوياتِ !
أَحَسَّ الصاحبانِ بفضلِ ربِّ الكونِ بل
رَفَعَا كفوفاً شاكراتِ
وكانا يشكرانِ الله في حُبٍّ
بخيرِ الخاطراتِ الصادقاتِ
ومعزةٌ لا يزال يكذبُ الدَّرَرُ (*) الذي

(*) الدَّرَرُ : المقصدُ أو الاتجاه الذي هداهما .

يأتى بهذى السانحات
وقال سأنفق المال المُصَفَّى فى
ضروبِ الباقياتِ الصالحاتِ
ووافقهُ الصديقُ وقال فلنذهبُ
إلى قَلْبِ المدينةِ فى ثَبَاتٍ !

النشيد الرابع

أراكم تلمحون نهاية القصة
ومرمى القول في هذا النشيد
وكان القصد أن أمحو الذي
أذى المظفر من أقاويل الحسود
وما أحسست عند البعض من ضيق
بإصغاء وتكرير وترديد !
وها أنذا أتيت وفي يميني
لباب الصدق بالنبأ الأكيد
وكنت أروم تصحيح الذي قبلا
عن المسكين في زمن تلديد
فنبّل صورة الشاب الكريم

بوصفٍ بالعيِّ (*) وبالبليدِ
وما ذاك الذي أحكيه ضربٌ من
خيالٍ من هوى الماضي البعيدِ
ولكن قولُ صدقٍ لا يرومُ سوى
الحقيقةِ في الثنايا من قصيدى !

(٦٦)

وها أنذا أعود لكى أغنى
بأنغام غدت في الأذن مألوفة
بهذا المقطع المأنوس تبدو
عروض البيت لا كالضربِ مقطوفة (**)

(*) العيِّ : العاجز عن الإفصاح أو الجاهل .

(**) العروض : (هنا) آخر الشطر الأول .

الضرب : (هنا) آخر تفعيلة من الشطر الثاني من البيت .

مقطوفة : القطف (فى العروض) حذف سبب خفيف فى آخر التفعيلة وإسكان

ما قبله (فى الوافر) وهو من علل النقص .

وفيهما كلُّ ما اعتدنا سماءَ
رتيبُ الوقع والأبياتُ مصفوفةُ
ولكنَّ الخيال لدى طارا
فحلَّق في سماءٍ غيرِ معروفةِ
رأى جبلاً فتاق إلى ذراهُ
وعينُ الشوق في العشاق مكفوفةُ
وقد يسمو الخيال بلا احترازِ
سماءُ الشعر بالأخطار محفوفةُ !
وها أنذا أحاذرُ من سُقوطِ
فأنغمى على التحليق ملهوفهُ
ورغم مخاطرِ التحليق أمضى
وأجنحتى تحلق غير مقصوفةُ !

وسوف تَرَوْنَ أَنى أَسْتَعِينُ هَنا
 بِقَدْرِ مَن رِواياَتِ رِواها لى مُحَدِّثُ صِدْقُ
 وَذاكَ يُحَرِّرُ الأَبِياَتِ مَن قَيِدِ التِّزَامِ
 بِالقِياِساتِ الَّتِى فى بَعْضِ أَحيانٍ تَعَوِّقُ الدَّفْقُ
 وَليسَ لَدِىَّ غَيرُ النِّبْضِ يَهْدِينِى
 وَيُمْلِى بِالكَلامِ العَدَوِّ أَوْ فَالِرفِقُ !
 لِذاكَ يَسْتَمِرُّ تِراوِجُ الأَبِياَتِ فى الفَقَراتِ
 وَفَقًّا لِاِختِلافِ الخَفْقُ
 فَأَحياناً تَرى الفَقَراتِ مَنظُمَةً
 وَأَحياناً تَراها تَخْرِقُ المألُوفَ كُلَّ الخَرْقُ
 وَقَد تَنسَابُ حانِيَةً اللّحونِ مُغْدِقَةً
 وَلَوْ أَنَّ الجَنادِلَ قَد تَعَوِّقُ الغَدَقُ

وقد أتى بقولٍ من صديقٍ فيه فَنُقُ
وقد يحتاجُ أحياناً إلى الرُّتُقُ
لنرجعُ يا صحابيِّ اللَّذينِ قد استطابا الفرح
فى زهُوٍ نجا من شرِّ غَدْرِ الحُمُقِ !

(٦٨)

ومرّت لحظةُ النُّشواتِ والعَبَراتِ فى البَسْمَةِ !
وجاءت لحظةُ التَّفكيرِ والتَّدبيرِ والقِسْمَةِ
وقرّرَ ذلكَ الخُلُ الوفىُّ بأنْ يُغادرَ مَكْمَنَ التَّابوتِ
مكتفياً بما آتاه ربُّ الكونِ من ذَهَبٍ ومن رَحْمَةٍ !
وكَلَّفَ معزّةَ المذهولِ أنْ يُخفى ببطنِ الأرضِ
ما لَقِياهُ من أموالِهِ الجَمَّةِ
على أنْ يَرْجِعَا حتى يَسُدَّ

مدخل القبر الكبير بليلة بهممة*)
وأرشدته إلى بعض الذي قد يستدل به
غداً في ساعة الفحمة**)
ووافق معزة النشوان صاحبه وفارقه
بدمعة شاكر لله أن آتاه حلمه
تحقق ما أراد الصاحبان وأظهرا في
كل ما فعلاه بين الناس حكمه
وفضل خل معزة أن يوارى نفسه عن كل عين
فينفق ماله في الخير سراً لا يتيه بأي نعمة !

(٦٩)

وأما معزة الممتن فهو يزدن إنفاقاً على أهله

(*) الليلة البهمة : التي لا يطلع فيها القمر .

(**) ساعة الفحمة : أهلك ساعة في الليل .

بلا خوفٍ فَمَغْنَمُهُ يَشُدُّ الْيَوْمَ مِنْ عَضْدِهِ
ويخطو في رَشِيدٍ وَيَبِينُ كُلُّ النَّاسِ وَتَابَ الْخُطَى
يَظُنُّ السَّعْدَ مَكْتُوبًا إِلَى أَبَدِهِ
هنا سرعانَ ما حَدَسَ الْوَرَى
بكل مَضَارِبِ الْأَحْيَاءِ فِي بَلَدِهِ
بأن هناك كَنْزًا ما خَفِيَاً مِنْ لَدُنْ رَبِّ الْجَلَالِ
يُفِيُّ عَلَى الْعُجُوزِ الْخَيْرَ مِمَّا فِي يَدَيِّ وَلَدِهِ
وسارعَ بَعْضُهُمْ يُهْدِي التَّهَانِي وَالْأَمَانِي
فَأَنْجَاهُ الْحَدِيثُ الْعَذْبُ مِنْ كَمَدِهِ
وكانَ الْبَعْضُ يُطْمَعُ فِي قَلِيلٍ أَوْ كَثِيرٍ مِنْ لَدَى
ذَاكَ الَّذِي آتَاهُ رَبُّ الْعَرْشِ مِنْ سَعْدِهِ
وَعَادَ النَّبْضُ لِلْمَسْكِينِ فَاِبْتَهِجَا
أَقَامَ الْفَرْحُ بَعْدَ الْحَزَنِ مِنْ أَوْدِهِ

وَأَبْرَأَ رُوحَهُ بَعْدَ النَّأْسَى
لِيَشْفِيَ الْعِلَّةَ الْكَادَاءَ فِي جَسَدِهِ !

(٧٠)

وَأَسْرَعَ بِالتَّخَرُّصِ بَعْضُ قَوْمٍ
فَقَالُوا الشَّابُّ كَذَابٌ سَقِيمٌ
أَلْحُوا بِالسُّؤَالِ عَلَى الصَّدِيقِ
وَلَكِنَّ الْفَتَى فَطِنٌ كَتُومٌ
وَأَرْجَفَ بَعْضُهُمْ عَنْ غَيْرِ عِلْمٍ
بَأَنَّ الشَّابَّ خَطَاءٌ زَنِيمٌ (*)
وَقَالَ بَأْنَهُ مِنْذُ الطُّفُولَةِ
يُقِيمُ عَلَى الشَّرَاهَةِ لَا يَرِيمُ !
وَأَوْفَى مَعْرَظُهُ الْهَانِي بِعَهْدِهِ

(*) زَنِيمٌ : لَئِيمٌ .

فأنشأ ما يفيدُ وما يدومُ
كدارٍ للفقيرِ وللشريدِ
وأنشدَ ذكرَهُ الشاكى اليتيمُ
وقال البعض هلْ لصُّ كريمٌ ؟
فذلك فى النهى (*) لا يستقيمُ !
فإِما أنه لصُّ أثيمُ
وإِما أنه بارٌّ رحيمُ !

(٧١)

ولما زادَ قولُ الناسِ فيه
وحيرَ بعضَهم قَلْباً وفِكْراً
أقامَ المسجدَ المُوَفى بعهْدِهِ
ليسجدَ فيه للرحمنِ شُكْراً

(*) النهى : العقول (جمع نُهْيَةٍ) .

وِظَلِّ يَبْرُ بِالْفَقْرَاءِ حَتَّى
أَتَاهُ هَاتِفٌ يَدْعُوهُ سِرًّا
لِيَعْتَزَلَ الْجَمِيعَ وَلَا يُبَالِيَ
بِمَنْ قَالُوا وَمَنْ سَامُوهُ جَوْرًا
فَأَصْبَحَ يَهْجُرُ الْأَحْيَاءَ صُبْحًا
وَيَنْفِرُ مِنْهُمْ وَظَهْرًا وَعَصْرًا
فَإِنْ حَلَّ الْمَسَاءُ أَتَى أَبَاهُ
بَخِيرٍ زَادَ مِنْ تَقْوَاهُ خَيْرًا
وَكُلَّانِ يُرَافِقُ السَّارَى بَلِيلٍ
صَدِيقُ الْحَقِّ عُسْرًا ثُمَّ يُسْرًا
وَأَحْيَانًا يَسِيرُ بِلَا رَفِيقٍ
وَبِالْإِنْسَانِ لَيْسَ يُطِيقُ صَبْرًا

وَلَمْ يُطِيقِ الْعِدَاةُ الْخَيْرَ فِي أَيْدِي الَّذِينَ سَمَوْا
وَزَادَهُمُ الرُّضَى فِي الْعَقْلِ بَسْطَهُ
رَأَوْا أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَنْشَطُونَ إِلَى
فِلَاحَةِ أَرْضِهِمْ تِينًا وَزَيْتُونًا وَحِنْطَهُ
وَسَاءَ لَهُمُ الْهَنَاءُ يَرِفُ فَوْقَ الْأَرْضِ
وَالْأَغْنَامُ فِي أَرْبَاضِهَا تَزْدَادُ غِبْطَهُ
وَيَمْكُرُ بَعْضُهُمْ سُوءًا وَيُضْمِرُ بَعْضُهُمْ شَرًّا
وَيُحْكِمُ بَعْضُهُمْ تَدْبِيرَ خُطَّةٍ
وَقَالُوا إِنَّهَا تَمْتَانُ بِالْحَذَرِ الشَّدِيدِ
وَبَادِعَاءٍ يُحْكِمُ الْفَتَانَ ضَبْطَهُ
إِذَا نَجَحَتْ مَسَاعِينَا وَأَسْقَطْنَا الْغَيْبِ
فَسَوْفَ يَأْخُذُ كُلُّ فَرْدٍ مِنْ رِجَالِ الْمَكْرِ قِسْطَهُ

ولست أقولُ إنْ عُدَاتَهُ اِمْتَاَزُوا عَنِ الدُّنْيَا بِحِطَّةٍ
فَكُلُّ فَتًى خَبِيثٍ طَامِعٍ يَحْتَاجُ فِي التَّدْبِيرِ حَيْطَةً
وَبَعْدَ عَنَاءِ مَكْرِ السُّوءِ جَاعُوا يَفْتَرُونَ عَلَيْهِ سَقَطَةً
وَأَسْرَعَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ فَأَبْلَغَ صَاحِبِ الشُّرْطَةِ

(٧٣)

وَأَيُّ جَرِيْمَةٍ تِلْكَ الَّتِي قَدْ تُلْصِقُونَ
بِصَاحِبِ الرَّحْمَاتِ وَالْخَيْرِ
وَإِنْ عَطَاءُهُ لِيَزِيدُ فِي الْأَرْضِ اخْضِرَارًا
وَالْحَقُولُ تَنْتِيهِ مِنْ بَشَرٍ
فَإِنْ يَكُ رَبُّنَا آتَاهُ خَيْرًا
فَمَا شَأْنُ الْوُشَاةِ بِكُلِّ جُحْرٍ ؟
وَمَا دَامَ الْفَتَى مَا مَدَّ عَيْنًا أَوْ
يَدًا لِلنَّاسِ يَسْبِرْقُهُمْ بِغَدْرِ

فليس لَدَيَّ ما أَصِمُّ الفتى
به وَفَقًّا لما تبغون من شَرٍّ
وَأَسْتُ أرى سِوَى الخيرِ الذى
نَمَاهُ رَبُّ العَرْشِ من طُهرٍ !
ولكنَّ الرِّشا فَعَلَتْ هنا
ما تفعلُ الأَمْوالُ من سِحْرِ
فَأُصدَرَ قائدُ الشرِّطِ القرارا
وتابعه بإِذارٍ وأَمْرٍ !

(٧٤)

هنا يصل الصراعُ مع الحقائق للذُّرَّا حَقًّا
وَتُخَفِّقُ كُلُّ هَبَّاتِ الخيالِ
وليس أدلُّ فى هذا على ما قد رواه محدثى -
(الصادقُ المصدقُ) من أقوالِ

يقول : "الناسُ قد عَرَفُوا الصَّبِيَّ الْغَرَّ طِفْلاً
"وما قد ذاعَ من بَلَهٍ عُضَالِ
"وراضوا النفسَ في صَبَرِ التَّراضَى
"على أن يَقْبَلُوا التَّغْيِيرَ في الأَحْوالِ
"فكانَ الهُزُّ بالعقلِ الْمُغَيَّبِ في صِرَاعِ
"مع الإعْجابِ عندَ تَدَقُّقِ الأَمْوالِ
"وقد يَخْتارُ ذَهْنَ المرءِ أن يَعْشُو
"بِفَيْضِ النُّورِ في غَطَشِ الظُّلالِ
"وإلا كيفَ عَمَّ الناسَ صَمْتُ إذْ
"غَدَا الشرطى يُطْلِبُهُ وَيُحِفُّ في السُّؤالِ
"وكانوا يُعْلِنُونَ بأنَّ مِعْزَةَ في خَفَاءِ
"ولا يدرى بهِ أَى الرِّجَالِ"

وقال محدثي صدقاً بأن الشاب
 قد ترك المدينة في المساء بليلة قمراء
 وظلَّ يسيرُ غرباً وحده وعلى مَحْيَاهُ
 سِمَاتُ الشَّعْرِ والشُّعْرَاءِ !
 وقد شَهِدَتْ عِیونُ القَوْمِ مَطْلَعَ رِحْلَةِ لَيْلِيَّةٍ
 وتَوَقَّعَتْ منه الرجوعَ بمشرقِ الأضواءِ
 ولكنَّ الفتى قد غابَ دهرًا لا يُقَاسُ
 بأى أيامٍ على الغبراءِ
 وقد ذَكَرَ الذينَ رَأَوْهُ يَمْشِى فى الفَلَاةِ بَأَنَّهُ
 يبدو كَمَنْ قد غَاصَ فى الصَّحْرَاءِ
 ولكنْ كانَ يَظْهَرُ ثم يَخْفَى كالسَّرَابِ

يراهُ كلُّ مُسَافِرٍ كالماءِ
لِكُلِّ حَقٍّ دَعَاهُ فَعَيْنُ المَدَّعَى
لا قَلْبُهُ مِنْ أَصْدَقِ الشُّهَدَاءِ
وما زالَ الصَّبِيُّ يُرى إِذا جَنَّ الظلامُ
كَأنه شَبَحٌ يَطُوفُ بِقُبَّةِ الخَضِرَاءِ !

خاتمة

أَعُودُ إِلَيْكُمْو فَأَسْوَ قُ بَعْضًا
مِنَ الْأَسْرَارِ فِي بَعْضِ السَّرَائِرِ
وَمِنْهَا أَنْ مِعْزَةَ بَعْدَ دَهْرِ
غدا إِسْمًا يُقَدَّسُ فِي الضَّمَائِرِ
وَذَلِكَ بَعْدَ أَنْ أَفْشَى صَدِيقُهُ
حَقِيقَةَ مَا جَرَى عِنْدَ الْحَفَائِرِ
فَهَبَّ النَّاسُ فِي بَحْثٍ طَوِيلٍ
وَشَوْقُ الْمَالِ فِي الْجَنَبِينَ فَائِرٍ
فَمَا وَجَدُوا لِذَاكَ الْكَهْفِ إِثْرًا
وَلَا مَسًّا بِأَرْضِ اللَّهِ غَائِرٍ
فَقَالَ الشَّابُّ سَوْفَ يَكْذِبُونِي

وْخَافَ بَأْنَ تَدُورَ بِهِ الدَّوَائِرُ
وَهَاجَرَ مِنْ مَدِينَتِنَا وَوَلَّى
فَمَا مَسَّتْهُ أَطْرَافُ الْخَسَائِرُ
بِهَذَا يَنْتَهَى قَصَصِي عَلَيْكُمْ
وَنُورُ الْفَجْرِ يَبْدُو كَالْبِشَائِرِ !

أعمال إبداعية منشورة

- ميت حلاوة * (مسرحية) قدمت على المسرح ١٩٨٢ ونشرت عام ١٩٧٩ - الهيئة المصرية العامة للكتاب - الطبعة الثانية - هيئة الكتاب - ١٩٩٤ .
- السجين والسجان * (أربع مسرحيات من فصل واحد) - الطبعة الأولى - ١٩٨٠ - هيئة الكتاب الطبعة الثانية ١٩٩٤ - هيئة الكتاب .
- البر الغربى * (مسرحية) قدمت على المسرح ١٩٦٣ ونشرت ١٩٨٥ - هيئة الكتاب .
- المجاذيب * (مسرحية) قدمت على المسرح ١٩٨٣ ونشرت ١٩٨٥ ، هيئة الكتاب .
- الغريبان * (مسرحية شعرية) قدمت على المسرح ١٩٨٨ ونشرت ١٩٨٧ هيئة الكتاب .
- جاسوس فى قصر السلطان * (مسرحية شعرية) قدمت على المسرح فى عام ١٩٩٢ ونشرت ١٩٩١ هيئة الكتاب .
- رحلة التنوير * (مسرحية وثائقية مع سمير سرحان والمادة العلمية لسامح كريم) قدمت على المسرح عام ١٩٩١ ونشرت ١٩٩٢ هيئة الكتاب .

ليلة الذهب * أربع مسرحيات من فصل واحد ١٩٩٣ - هيئة
الكتاب .

حلاوة يونس * أربع مسرحيات من فصل واحد ١٩٩٣ - هيئة
الكتاب .

السادة الرعاع * (مسرحية) ١٩٩٣ هيئة الكتاب .

الدرويش والغازية * (مسرحية) ١٩٩٤ هيئة الكتاب .

أصدقاء الصمت * ديوان شعر ١٩٩٧ هيئة الكتاب .

واحات العمر * سيرة أدبية ١٩٩٨ هيئة الكتاب .

واحات الغربية * سيرة أدبية ١٩٩٩ هيئة الكتاب .

حورية أطلس * ديوان شعر ٢٠٠١ هيئة الكتاب .

واحات مصرية * سيرة أدبية ٢٠٠١ هيئة الكتاب .

حكايات الواحات * سيرة أدبية ٢٠٠٢ هيئة الكتاب .

الجزيرة الخضراء * رواية تاريخية ٢٠٠٢ مكتبة الأسرة .

طوق نجاة * قصة شعرية ٢٠٠٢ هيئة الكتاب .

الفهرس

٣التصدير
١١حكاية معزه
١٣إستهلال
١٩النشيد
٤٧النشيد الثاني
٧٧النشيد الثالث
١١٣النشيد الرابع
١٣١خاتمه

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ٤٠٧٦ / ٢٠٠٤

I.S.B.N 977 - 01 - 9030 - 6